

آداب
الحسن البصري
وزهده ومواعظه

مؤلف
الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي
رحمته الله تعالى

محقق
سليمان المحرشي

دار الصلوة

آداب
الحسين البصري
وزهده ومواعظه

الطبعة الاولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

تأليف
الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي
رحمه الله تعالى

تحقيق
سليمان الحرش

دار الصديق



دار الصديق للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب. ٢٤٢٠٧ - هاتف : ٤٤٤٧٠٠١ - فاكس : ٤٤٤٧٠١١

ببروت - لبنان - ص.ب. : ١٤/٥١٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه
وصفاته، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه
وهلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.



الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم
يهدون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُخَيِّونَ
بكتاب الله تعالى الموتى، وَيُصْصِرُونَ بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل
لأبليس قد أحيوه! وكم من ضالٍّ نائٍ قد هَدَوْه! فما أحسن أثرهم على
الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينقون عن كتاب الله تعالى تحريف
الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، اختارهم الله بفضله،
والْحَمْدُ من شاء بعدله، اختص من أهل الإيمان من أحب فعلمهم الكتاب
والحكمة، وسلك بهم صراطه المستقيم.

إن أمتنا اليوم تمر بفترة عصيبة مظلمة، من خلال صراعات فكرية
منهجية، وسلوكية، نعيشها مسترقين النظر، مطرقين خجولين من ماضي
مافلٍ برجالٍ نعتز بذكورهم، أئمة في العلم والتقى، والزهد والورع،

أبو سلوم العتزلي

والجهاد والبطولة، ما غيروا ولا بدلوا، بل آمنوا واتبعوا واستقاموا، قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا﴾ (١).

سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين هم القدوة والمنهج: عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - الصحابي الجليل بين منهج الاتباع، ويحذر من الميل والبعد عنه؛ فيقول فيما يرويه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: «إني ألفيت أصحابي على أمر، وإنني إن خالفتهم خشيت ألا الحق بهم».

واليوم ما أخرجنا إلى العالم القدوة أمثال الحسن البصري - رحمه الله - تعالى - فالعج كثير، والحج قليل.

يقول الشاعر:

أيها العالمُ إِيَّاكَ الزَّلُّ واحذر الهَفْوَةَ فالخَطْبُ جَلَلُ
هَفْوَةُ الْعَالِمِ مُسْتَغْطَمَةٌ إِنْ هَفَأَ أَصْبَحَ فِي الْخَلْقِ مَثَلُ
لَا تَقُلْ يَسْتُرْ عَلَـمِي زَلَّتِي بَلْ بِهَا يَحْصُلُ فِي الْعِلْمِ الْخَلَلُ

الحسن البصري علم من أعلام التابعين، اشتهر واستفاضت شهرته علماً وأدباً وزهداً وورعاً، فكان القدوة والمثل لعلماء الأمة من بعده.

وكان أهل البصرة إذا قيل لهم: من أعلم أهلها، ومن أروعهم، ومن أزهدهم، ومن أجملهم؟ بدؤوا به، وثنوا بغيره.

جمع سيرته الإمام جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله تعالى - وسماها: آداب الحسن بن أبي الحسن البصري وزهده ومواظبه.

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

وأخيراً أشكر وأدعو لأخي الأستاذ إبراهيم باجس الذي دفعني وحشد لإخراجها.

أسأل الله العظيم أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، فهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَكَبَّهُ
سَيِّدَانِ بْنِ مُسَامِرٍ الْحَرَّشِ
دمشق
جمادى الآخرة - ١٤٢٥ هـ

٥- قمت بعزو الأحاديث إلى مظانها في كتب السنة، إلا القليل الذي
لم أشر على مظانه.

٦- ترجمت لأكثر الأعلام ترجمة موجزة.

٧- شرحت الغريب، وعلقت على بعض المواطن التي تحتاج زيادة

...

٨- قمت بترجمة موجزة لمصنفها الإمام «ابن الجوزي».

٩- وختمتها بفهرسة لما جاء في فصولها.

والله أسأل أن ينفعني وينفع بها، وأن يرزقنا صدق النية والقصد،

والله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

عملي في الكتاب

كان عملي في هذا الكتاب بعد الاعتماد على الله تعالى أولاً وآخرًا:

١- أن اعتمدت على مصورة النسخة الخطية المحفوظة في «آيا صوفيا»
بتركيا رقم الحفظ: (١٦٤٢)، والتي أوقفها ابن السلطان الغازي محمود
خان، والتي جاء في آخرها:

«وكان الفراغ من هذا الكتاب بعون الملك المعين الوهاب... يوم
الاثنين الواضح البيان ثاني عشر شهر الله المعظم رمضان... من شهور
سنة ثمانين وتسع مئة من الهجرة الشريفة النبوية»^(١).

٢- قمت بمقابلتها على النسخة المطبوعة عام (١٣٥٠هـ) تحت
عنوان: سلسلة الرسائل النادرة التي قدم لها الأستاذ/ حسن السندويي.
وهذه النسخة قد عابها سقط قرابة أربعين ورقة من أماكن مختلفة، مع
تصحيفات وتصرُّف في بعض النصوص.

٣- قمت بتوزيع النص توزيعاً مناسباً، مع مراعاة علامات الترقيم،
وبداية الفقرات.

٤- خرَّجت الآيات القرآنية.

(١) أرسلها إلى اخي الفاضل الدكتور إبراهيم السقا - جزاه الله خيراً -.

وكان أول سماعه سنة ست عشرة، وسمع بعدها من خلق كثير عدتهم سبعة وثمانون نفساً.

وانتفع في الحديث بملازمة ابن ناصر، وفي القرآن والأدب بسبط الخياط، وابن الجواليقي.

وكان بَحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، فقيهاً، عالماً بالإجماع والاختلاف، وكان ذا حظٍّ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، قد طاوَعته اللغة والبيان، يحضر مجلسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة الكبار، لا يكاد مجلسه ينقص عن الوف كثيرة.

قال سبطه أبو المظفر في «مرآة الزمان»:

«سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلد، وتاب على يديّ مئة ألف، وأسلم على يديّ عشرون ألفاً، وكان يختم في الأسبوع»^(١).

ثم قال: ومجموع تصانيفه مئتان واثنان وخمسون كتاباً، منها: «المغني في علوم القرآن»، اختصره في كتاب «زاد المسير»، «تذكرة الأريب» في اللغة، «التيسير في التفسير»، «فنون الأفتان في علوم القرآن»، «ورد الأغصان في معاني القرآن»، «النبعة في القراءات السبعة»، «الإشارة في القراءات المختارة»، «تذكرة المنتبه في عيون المشتهة»، «الفوائد المختقاة»، «سلوة الأحزان»، «النقاب في الألقاب»، «آفة المحدثين»، «البدائع الدالة على وجود الصانع»، «مسبوك الذهب في الفقه»، «البلغة

(١) «مرآة الزمان»: (٨/ ٤٨٢).

أبو الفرج بن الجوزي^(١)

الإمام العلامة، الحافظ المفسر، عالم العراق، وواعظ الآفاق، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن ابن الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله - ﷺ - أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي، صاحب التصانيف العديدة في فنون العلم.

وُلد سنة تسع أو عشر وخمس مئة، عُرف جدّه بالجوزي؛ لجوزة كانت في دارهم بواسط، ثم يكن بواسط جوزة سواها. تُرُفي أبوه وله ثلاثة أعوام، فربته عمته.

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢٨/ ١٣)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٣٤٢)، «الذيل على طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩٩)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢١/ ٣٦٥)، «شذرات الذهب» (٤/ ٣٢٩)، «طبقات المفسرين» للسيوطي (١٧)، «طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٢٧٠)، «العبر» (٣/ ١١٨)، و«مرآة الجنان» للياضي (٣/ ٤٨٩)، «مفتاح السعادة» (١/ ٢٤٥)، «الكامل» لابن الأثير (١٢/ ١٧)، «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٦/ ١٧٤)، «دول الإسلام» للذهبي: (٢/ ١٠٦)، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص ٤٨٠)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان: (١/ ٢٧٩).

في الفقه»، «التلخيص في الفقه»، «لفظة العجلان»، «حال الحلاج»،
«عطف الأسراء على العلماء»، «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، «الحث
على العلم»، «لفتة الكبد»، «الوجوه والنظائر»، «جامع المسانيد»،
«تلبس إبليس»، «صيد الخاطر»، «التحقيق في مسائل الخلاف»،
«الأذكياء»، «منهاج القاصدين»، «الوفا بفضائل المصطفى»، «كتاب
الموضوعات»، «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية».

وقد ألف في مناقب كثير من الأئمة؛ كأبي بكر، وعمر، وعلي،
 وإبراهيم بن أدهم، وعمر بن عبد العزيز، ومنها: مناقب الحسن البصري
 التي بين أيدينا، وغيرها كثير.

قال سبطه: ومجموع تصانيفه مئتان ونيف وخمسون كتاباً، وكذا وجد
 بخطه قبل موته^(١).

قال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو
 الشمانل، رخيخ النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيد المفاكهة،
 يحضر مجلسه مئة ألف أو يزيدون، لا يضيع في زمانه شيئاً، يكتب في
 ليوم أربعة كرايس، وله في كل مشاركة^(٢).

قال الذهبي في «التذكرة»:

«له وهم كثير في تأليفه، يدخل عليه الداخل من العجلة والتحويل إلى
 صنف آخر».

قد يلاحظ المتتبع لكتبه، وخاصة مصنفاته في الأحاديث الموضوعة

(١) «سير أعلام النبلاء»: (١٣/٣٧٠).

(٢) «تذكرة الحفاظ»: (٤/١٣٤٦).

والضعيفة أنه ربما يدرج أحاديث كثيرة في هذا الباب، وهي صحيحة أو
 حسنة، فليتنبه لذلك طلاب العلم.

قال الذهبي في «التاريخ الكبير»:

«لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة
 اطلاعه وجمعه».

وكانت وفاته ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة سبع
 وتسعين وخمس مئة من الهجرة - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته -.



صور المخطوطات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وعليه توكلت

الحمد لله أهل الحمد ومُسْتَحِقُّه، ومستخلصه لنفسه، ومستوجبه على خلقه، الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وقفت - أدام الله عزك وتأييدك - على ما ألتمسته، ورغبت فيه، وحرصت عليه من جمع ما هو مُفْتَرَقٌ في الكتب، من آداب الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله عليه -، وزهده، ومواظبه، فأجبتك إلى ذلك، وجمعت ما نيسر لي جمعه، وأثبت ما انتهت القدرة إليه؛ حرصاً على بلوغ مرادك، وقضاء لواجب حقك، وبالله أستعين، وهو حسبي ونعم الوكيل، وقد رسمت ما جمعته من ذلك على ثمانية فصول:

الفصل الأول: في ذكر منسبته، وصفة أحواله وأفعاله.

الفصل الثاني: فيما روي عنه من الآداب، ومكارم الأخلاق.

الفصل الثالث: فيما أوردته من الحكم، والمواظب مختصراً على جهة البلاغة والإيجاز.

الفصل الرابع : في ذم الدنيا ، ونهي عن التعلق بها .

الفصل الخامس : فيما روي عنه عند تلاوة القرآن من الحكيم والمواعظ .

الفصل السادس : فيما أوردته على جهة الاستغفار والدعاء ، ونهي عن التصنع والرياء .

الفصل السابع : في مكاتباته للخلفاء ، ومقاماته مع الأمراء .

الفصل الثامن : فيما روي عنه من المواعظ والحكم من سائر الأشياء .

الفصل الأول

في ذكر منشئه ، وصفة أحواله وأفعاله

هو الحسن بن أبي الحسن البصري^(١) . كان أبوه مؤلفاً لرجل من الأنصار ، وكانت أمه مولاة لأُم سلمة ؛ زوج النبي ﷺ ، رُبي في حجرها ، وأرضعته بلبانها ، ودرّ عليه ثديها ؛ لبرها به ، ومحبته لها ، فعادت عليه بركة النبوة ، فتكلم بالحكمة ، وارتقى في الصلاح والمعرفة إلى أفضل رتبة ، وكان - رحمه الله - أحد المتقين ، ومن أولياء الله الصديقين .

روى في الخبر : أنَّ عائشة - رضي الله عنها - سمعت الحسن يتكلم ، فقالت : مَنْ هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ؟

وقيل لعلي بن الحسين^(٢) - رضي الله عنهما - : إن الحسن يقول : ليس

(١) لمزيد ترجمته انظر : «سير أعلام النبلاء» (١/٥٦٣) . «طبقات ابن سعد» (٧/١٥٦) . «الزهد» للإمام أحمد (ص ٢٥٨) . «حلية الأولياء» (٢/١٣١) . «تهذيب الكمال» (٦/٩٥) . «المرح والتمديد» (٣/٤٠) . «تذكرة الحفاظ» (١/٧١) . «العيبر» (١/١٠٣) . «تاريخ الإسلام» (٤/٩٨) . «البداية والنهاية» (٩/٢٦٦) وغيرها .

(٢) هو علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - زين العابدين ، وُلد سنة ثمان وثلاثين ظناً ، وكان ثقة ، مأموناً ، كثير الحديث ، ورعاً . مات سنة أربع وتسعين .

الْعَجَبُ لِمَنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ؟ وإنما الْعَجَبُ لِمَنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا ؟ فقال عليٌّ : سبحان الله ! هذا كلامٌ صديق .

وروي عن الأعمش أنه كان يقول : مازال الحسنُ يعني^(١) بالحكمة حتى نطقَ بها .

وسمعه آخرُ وهو يعِظُ، فقال : لله دَرَّةٌ، إنه لفصيحٌ، ذو لَفْظٍ صحيحٍ إذا وَهَظَ .

وكان الحسنُ دائمَ الحُزْنِ، كثيرَ البُكاءِ، مطالباً نفسه بالحقائق، بعيداً من التصنع، لا يُظهِرُ التَّقَشُّفَ، وإن كانَ بادياً عليه، ولا يدعُ التَّجَمُّلَ، ولا يمتنعُ من لبسِ جَيِّدِ الثيابِ، ولا يتخلَّفُ عن مُزَاكَلَةِ الناسِ، ولا يتأخَّرُ عن إجابةِ الداعي إلى الطعامِ، وكان له سَمْتُ يعرفُهُ به مَنْ لم يكنُ رَأً .

روي أن رجلاً دخلَ البَصْرَةَ، ولم يكنُ رأى الحسنَ، فسألَ عنه الشعبيُّ، فقالَ : ادْخُلِ الْمَسْجِدَ - عافاك الله - فإذا رأيتَ رجلاً لم تر مثله قطُّ رجلاً، فذلك هو الحسنُ .

وقيلَ : وردَ أعرابيُّ البَصْرَةَ، فقالَ : من سيِّدُ هذا المِصْرِ ؟ فقالوا : الحسنُ بنُ أبي الحسنِ، قالَ : فيمَ سادَ أهلُه ؟ قالوا : استغنى عَمَّا في أيديهم من دُنْيائهم، واحتاجوا إلى ما عندهُ من أمرِ دينهم، فقالَ الأعرابيُّ : لله دَرَّةٌ، هكذا فليكنِ السَّيِّدُ حقاً .

وقيلَ : مرَّ بهِ راهبان، فقال أحدهما لصاحبه : ملِّ بنا إلى هذا الذي يشبهُ سَمْتَهُ سَمْتُ الْمَسِيحِ ؛ لننظرَ ما عندهُ . فلما قربا منه، سمِعاهُ يقولُ :

يا عجباً لقومِ اسرُوا بالزَّادِ، ونُودوا بالرَّحِيلِ، وخُيسَ أولُهم على آخرِهِم، فهم ينتظرونَ النُّورَ على رَبِّهم؛ ثم هُم بعدَ ذلكَ في سَكْرَةٍ يعمَهُون ! ثم بكى حتى بَلَ لِحِيَّتَهُ . فقال الراهبان : حَسْبُنَا ما سمِعناهُ من الرجلِ، ثم انصرفا عنه .

وكان أهلُ البَصْرَةِ إذا قيلَ لهم : من أعلمُ أهلِها، ومن أورَعُهُم، ومن أزهَدُهُم، ومن أجملُهُم ؟ بدَّؤوا به، وثَنُّوا بغيره . فكانوا إذا ذكروا البَصْرَةَ، قالوا : شَيْخُها الحسنُ، وفتاها بكرُ بن عبد الله المُرَني^(١) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : لو رأيتَ الحسنَ، لقلتَ : صَبَّ على هذا حُزْنُ الْخَلَائِقِ ؛ مِنْ طَوْلِ تِلْكَ الدَّمْعَةِ، وكثرةِ ذلكَ النَّشِيجِ .

وقيلَ له : صِفْ لنا الحسنَ، فقالَ : رحمَ اللهُ أبا سعيدٍ، كانَ - والله - إذا أقبلَ كأنه رَجَعَ مِنْ دَفْنِ حَمِيمِهِ، وإذا أدْبَرَ كأن النارَ فوقَ رأسِهِ، وإذا جَلَسَ كأنه أسيرٌ قُدِّمَ لِتَضْرِبَ عُنُقَهُ، وإذا أصْبَحَ كأنه جاءَ من الآخرةِ، وإذا أمْسَى كأنه مريضٌ أضناه الشَّقْمُ .

قالَ بونسُ بنُ عبدِ الله : ما رأيتُ الحسنَ قطُّ ضاحكاً بِمِلءِ فيه .

وقيلَ : جلسَ محمدُ بنُ واسعٍ إلى ثابتِ بنِ مَحْمَدِ البُنانيِّ، فرأه يضحكُ في مجلسه ويمزحُ، فقالَ : عافاك الله ! إنك لتَمزحُ في مجلسِكَ، ولقد كنَّا نجلسُ إلى الحسنِ فكأنَّه إذا خرجَ إلينا كأنه جاءَ من الآخرةِ يحدثُنا عن أهوالِها .

(١) بكرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرو أبو عبدِ الله المُرَني البصريُّ . الإمامُ القدوةُ، الواعِظُ، أحدُ الأعلامِ، يذكُرُ مع الحسنِ وابنِ سيرين . مات سنة سِتٍّ ومئة، وقيلَ : سنة ثمانٍ ومئة، وهو الأصحُّ كما قالَ الذهبي . انظر : «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٣٢) .

(١) وفي «تهذيب الكمال» (٦/٥٨)، و «السير» (٤/٥٨٤)، و «حلية الأولياء» عن الأعمش : «مازال الحسن يعني الحكمة» .

فقال ثابت: رحم الله الحسن، كان من أهل الحق والجِدِّ، وأتى لنا نظرة منه؟! وما نحن والحسن إلا كما قال الأول:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةُ الْبُرْلِ الْمَقَاعِيسِ^(١)

وقيل: اعتزل الحسن الناس يوماً، فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا سعيد! أصلحك الله، لقد خفنا عليك الوحشة، فقال: يابن أخي! لا يستوحش مع الله - سبحانه وتعالى - إلا أخمق.

وقال حميد خادِمُ الحسن: قال لي الشعبي^(٢) يوماً: أريد أن تعلِّمَني إذا خلا الحسن لأجتمع به خالياً، فأعلمت بذلك الحسن، فقال: عَرَّفُهُ، وليأت إذا شاء. فخلا الحسن يوماً، فأعلمت الشعبي، فبادر وأتينا منزل الحسن، فوجدناه مستقبل القبلة وهو يقول: ابن آدم! لم تكن فكنوت، رسالت فأعطيت، وسئلت فبخلت، بشئ والله - ويحك - ما صنعت! لسئمتنا عليه، ووقفنا ساعة، فما التفت إلينا، ولا شعر بنا، فقال الشعبي: لرجل - والله - في غير ما نحن فيه، فانصرفنا ولم نجتمع به.

وقيل له يوماً: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ فقال: والله ما من انكسرت سفينته في لجج البحر بأعظم مني مصيبة، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنني من ذنوبي على يقين، ومن طاعتي وقبول عملي على وجل، لا أدري قبلت مني، أم ضربت بها وجهي؟ فقل له: فأنت تقول ذلك يا أبا سعيد؟! فقال: ولم لا أقول ذلك؟! وما الذي يؤمِّنني أن يكون الله -

سبحانه وتعالى - قد نظر إليّ وأنا على بعض هتائي نظرة مفتني بها، فأغلق عني باب التوبة، وحال بيني وبين المغفرة، فأنا أعمل في غير مُعَمِّل؟

وقال له آخر: كيف حالك يا أبا سعيد؟ فقال: شرُّ حال، قال: ولم ذلك؟ قال: لأنني امرؤ أنتظر الموت إذا أصبحت، وإذا أمسيت، ثم لا أدري على أي حالة أموت؟

ودخل عليه رجل وهو يئكي، فقال: ما يُبكبك - أصلحك الله -؟ فقال: (أخاف)^(٣) والله أن يُدخِلني مَلِكِي النار ولا يُيالي.

وسأله عن الطامة رجل؟ فقال: هي الساعة التي يُدفع الناس فيها إلى هذاب جهنم وبئس المصير؛ نعوذ بالله من النار، ومن عمل يُؤدي إلى النار.

وذكرت النار يوماً في مجلسه فقال: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخرجُ عدداً من النار رجل بعد أن يُقيم فيها أعواماً»^(٤)، ثم قال الحسن: لبيتي كنت ذلك الرجل.

وكان يقول: ما صدق عبدٌ بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولا والله ما صدق عبدٌ بالنار إلا ظهر ذلك في لحمه ودمه.

وقيل لأبي سليمان الداراني^(٥): إن الحسن كان يقول: من أراد أن

(١) ساقطة من المخطوط، والاستدراك من المطبوع.

(٢) أصل الحديث عند البخاري في الرقاق: (٤١٦/١)، وفي التوحيد من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفح، فيدخلون الجنة، فيسبهم أهل الجنة الجهنمين».

(٣) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان الداراني، الزاهد، المشهور، من أهل داريا بقوالة دمشق، من كبار المتصوفة، توفي سنة (٢١٥ هـ).

(٤) البيت لجبريل ويروى: (القناعيس) كما في «اللسان» (١٧٨/٦).

(٥) هو عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو، ثقة، مشهور، فقيه، فاضل، مات بعد المعنة، وله نحو من ثمانين.

يَخْشَعَ قَلْبُهُ، وَيَغْزُرَ دَمْعُهُ، فليَأْكُلْ فِي نِصْفِ بَطْنِهِ، فقال أبو سليمان: رحم الله أبا سعيد، كان - والله - من القوم الذين مَهَّدُوا لأنفسِهِمْ، وناقَشوها الحسابَ قبلَ يومِ الحسابِ، وإني لأرجو أن يكونَ من الفائزين، رحمه الله تعالى.

وكان رجلٌ من أهلِ المسجدِ الحرامِ يقولُ: ما كنتُ أريدُ أن أجلسَ إلى قومٍ إلا وفيهِمْ مَنْ يحدثُ عن الحسنِ بنِ أبي الحسنِ البصريِّ، رحمه الله. وقيلَ له يوماً: يا أبا سعيد! أيُّ شيءٍ يُدْخِلُ الحُزْنَ في القلبِ؟ فقال: الجوعُ، قال: فأَيُّ شيءٍ يُخْرِجُهُ؟ قال: الشَّبعُ. وكان يقولُ: توبوا إلى الله من كثرةِ النومِ والطعامِ.

وكان يقولُ: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما مِنْ عَبْدٍ جَوَّعَ نَفْسَهُ إِلَّا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ ثَوَابٌ أَفْضَلُ مِنْ ثَوَابِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، إِلَّا لِمَنْ جَاءَ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ» - يريدُ: مَنْ صَامَ اللهُ سبحانه -.

وقال مالكُ بنُ دينارٍ^(١): دخلتُ يوماً على الحسنِ وهو يأْكُلُ، فقال: كُلْ يَا بَنَ أَخِي! فقلتُ: أَكَلْتُ، فقال: وَإِنْ فَعَلْتُ، فَأَسْعِدَنِي! فقلتُ، والله! لَقَدْ شَبَعْتُ، فقال الحسنُ: يَا سَبْحَانَ اللهِ! مَا كُنْتُ إِخَالُ أَنْ مُؤْمِنًا يَأْكُلُ حَتَّى يَشْبَعَ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَسَاعِدَ أَخَاهُ.

وقيلَ: حَضَرَ الحسنُ وليمَةً، وحَضَرَهَا رجلٌ مِنَ الْمُتَفَشِّفِينَ، فَلَمَّا قُدِّمَتِ الحُلُوءُ، رَفَعَ يَدَهُ رِيَاءً وَنَصَتْعاً، فَأَكَلَ الحسنُ، وقال: كُلْ

يَا لُكْعُ^(١)، فَلَنِعْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ فِي المَاءِ البَارِدِ أعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِي الحُلُوءِ.

وقيلَ: إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ اخْتَزَلَ مِنَ الطَّعَامِ دَجَاجَةً، فَقَالَ الحسنُ: رُدِّ مَا هُوَ عَلَيْكَ حَرَامٌ، وَكُلْ إِنْ شِئْتَ مَا هُوَ لَكَ حَلَالٌ، واحْذِرِ الرِّيَاءَ وَالتَّصَنُّعَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَمُقِّتُ فَاعِلَهُمَا.

وقيلَ: رَأَى الحسنُ شَيْخاً فِي جَنَازَةٍ، فَلَمَّا فُرِغَ مِنَ الدَّفْنِ، قَالَ لَهُ الحسنُ: يَا شَيْخُ! أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ: أَتَظُنُّ أَنَّ هَذَا المَيِّتَ يَوْدُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَيُزِيدَ مِنْ عَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَيَسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْ ذُنُوبِهِ السَّالِفَةِ؟ فَقَالَ الشَّيْخُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ! فَقَالَ الحسنُ: فَمَا بَالُنَا لَا نَكُونُ كُلُّنَا كَهَذَا المَيِّتِ؟! ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّ مَوْعِظَةٍ؟ مَا أُبَلِّغُهَا لَوْ كَانَ بِالْقُلُوبِ حَيَاةٌ؟ وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي.

ولقيَه رجلٌ - وهو يريدُ المسجدَ في لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ ذَاتِ رَدْعٍ^(٢) - فَقَالَ: أَفِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ تَخْرُجُ يَا أبا سَعِيدٍ؟! فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي! هُوَ التَّسَدِيدُ أَوْ الْهَلَكَةُ.

وكان - رحمه الله - صَاحِبَ لَيْلٍ.

وكان يقولُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئاً مِنَ الْعِبَادَةِ أَشَدَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَإِنَّهَا لَمِنْ أَعْمَالِ الْمُتَّقِينَ.

وكان يقولُ: حِصْلَةُ اللَّيْلِ فَرَضٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ قَدَّرَ حَلَبُ شَاةٍ، أَوْ فُؤَاقُ نَاقَةٍ.

(١) اللُّكْعُ: اللَّثِيمُ، وَالْعَبْدُ، وَالْأَحْمَقُ، وَمَنْ لَا يَنْجُو لِمَنْطِقٍ وَلَا غَيْرِهِ.

(٢) الرَّدْعَةُ - محرَّكة، وتسكن - : المَاءُ وَالطَّيْنُ، وَالْوَحْلُ الشَّدِيدُ.

(١) هو مالك بن دينار البصري، علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، يكنى أبا يحيى، وُلِدَ فِي أَيَّامِ الْعَبَّاسِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْمَصَاحِفَ، مِنَ الْعُلَمَاءِ الزَّهَّادِ، مَاتَ قَبْلَ الطَّاعُونَ بِسَبْعٍ، وَكَانَ الطَّاعُونَ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَمِئَةً.

وكان يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم؛ قد كُتِبَتْكَ الخطايا والذنوب.

وكان يقول: منع البرِّ النوم، ومن خاف الفوات أدلج^(١).

وقال له رجل: يا أبا سعيد! أعياني قيام الليل، فما أطيقه، فقال: يابن أخي! استغفر الله، وتب إليه، فإنها علامة سوء.

وكان يقول: إن الرجل ليُذنب الذنب فيُحرم به قيام الليل.

وقيل: حاول الحسَنُ الصلاة ليلة، فلم تطاوعه نفسه، فجلس سائر الليلة لم يتم فيها حتى أصبح، ف قيل له في ذلك، فقال: غلبتني نفسي على ترك الصلاة، فغلبتها على ترك النوم، وإيم الله! لا أزال بها كذلك حتى تذل وتطاول.

وكان يقول: إن النفس أمارَةٌ بالسوء، فإن عصتكَ في الطاعة، فاعصها أنت في المعصية.

وقيل لعبد الواحد صاحب الحسَن: أي شيء بلغ الحسَنُ فيكم إلى ما بلغ، وكان فيكم علماء وفقهاء؟ فقال: إن شئت عرفتكَ بواحدة، أو اثنتين، فقلت: عرفني بالاثنتين، فقال: كان إذا أمر بشيء أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء أترك الناس له، قلت: فما الواحدة؟ قال: لم أر أحداً قط سريته أشبه بعلايته منه.

وقيل للحسَن في شيء قاله: ما سمعنا أحداً من الفقهاء يقول هذا! فقال: وهل رأيتم فقيهاً قط؟! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، الدائب على العبادة، الذي لا يُداري ولا يُماري، ينشر

(١) والدلج: بالضم والفتح: السير من أول الليل.

حكمة الله، إن قبلت منه، حميد الله، وإن رُدَّت عليه، حميد الله.

وقيل: خطب إليه رجل ابنته، وبذل لها مئة ألف درهم، فقالت أختها: زوجه؛ فقد أرغبها في الصداق، وبذل لها ما ترى، فقال الحسن: إن رجلاً بذل في صداق امرأة مئة ألف لجاهل مغرور يجب ألا يرغب في مناكحته، لا يُخرص على مصاهرته. وترك تزويجه، وزوجه من رجل صالح.

وقيل: سأوره رجل فقال: يا أبا سعيد! لي ابنة أحبها، وقد خطبها رجل من أهل الدنيا، فمن ترى لي أن أزوجه؟ فقال: زوجه من بقي، إن أحبها أكرمها؛ وإن أبغضها لم يظلمها.

وقيل ليوسف بن عبيد: هل تعرف رجلاً يعمل بعمل الحسَن؟ فقال: نعم الله الحسَن، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؟! إن - والله - إذا ذكرت النار عنده كأنه لم يخلق إلا لها، وما رُئي قط إلا بالنار والجنة بين عينيه خشية ورجاء، لا يغلب أحدهما صاحبه.

وقال حميد خادم الحسَن: دخلنا على الحسن في بعض عياله نعوذ، فقال: مرحباً وأهلاً بكم، حياتكم الله بالسلام، وأحلنا وإياكم دار المقام.

فقلنا: عظمنا يرحمك الله! فإننا نرجو الانتفاع بما نسمع منك.

لقال: هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم وأتقيتم، معاشر إخواني! لا يمكن حظكم من الخير سماعه بأذن، وخروجه من أذن؛ فإنه من رأى محمداً ﷺ رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لينة على لينة، ولا قصبته على لينة، بل رفع له ﷺ علم الهداية، فشم إليه، فهيناً لمن اتبع سببه، والله في أثره، الوحا الوحا^(١)، ثم النجاء النجاء، علام تفرحون

(١) الوحا: العجلة والإسراع.

ولا تَخْزَنُونَ؟ أُنِشِمَ وَرَبُّ الكَعْبَةِ! كَأَنكُمْ - والله - والأمرُ قد جاءَ معاً،
والسعيدُ من اعتَدَّ له .

قال أبو عبد الرحمن: دخلنا على الحسن وهو عليلٌ، فأحضرَ كاتباً
ليكتبَ وصيَّةً، ثم قال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم
أما بعد: فإنَّ الحسنَ عبدُ الله وابنُ أمِّه، يشهدُ أن لا إله إلا الله وحده
لا شريكَ له، وأنَّ محمداً ﷺ عبده ورسوله، من لَقِيَ اللهَ بها صادقاً لسانه،
مُخلصاً قلبه، أدخله الله الجنة .

ثم قال: سمعتُ معاذاً يقولُ ذلك، ويُوصي به أهله، ثم قال معاذ:
سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ ذلك، ويُوصي به أهله .

وقيل: لما احتضرَ الحسنُ، جَزَعَ جَزَعاً شديداً، فقالَ له ولده: لقد
أَفْزَعْتَنَا بِجَزَعِكَ هذا يا أبتَ، فقال: يا بُني! قد جاءَ الحقُّ، وزَهَقَ الباطلُ،
وها أنا أصابُ بنفسي التي لمْ أُصَبْ بِمِثْلِهَا .

وقال مالكُ بنُ دينار: رأيتُ الحسنَ - رحمه الله عليه - في منامي - بعدَ
أن مات - مسروراً، شديدَ البياض، نَبْرُقُ مجاري دُمُوعِهِ، فقلتُ: أَلَسْتَ
من المومنين؟ فقال: بلى! قلتُ: فماذا صِرْتَ إليه بعدَ الموتِ . . . فلَعَمْرِي
لقد طالَ حزنُكَ في الدنيا؟ فقال: رَفَعَ - والله - لنا ذلكَ الحزنُ عَلِمَ الهدايةَ
إلى منازلِ الأبرار، فَحَلَلْنَا بِثَوَابِهِ مَسَاكِنَ الْمُتَّقِينَ، وإيَّاهُ اللهُ! إِنَّ ذلكَ إِلَّا من
فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا . قلتُ: فما نَأْمُرُنا به يا أبا سعيد؟ قال: وما عسى؟ إِنَّ
أَطْوَلَ الناسِ حُزْناً في الدنيا أَطْوَلُهُمْ فَرَحاً في الآخرة .

وقال صالحُ المُرِّي^(١): دخلتُ على الحسنِ يوماً، فسمعتُهُ ينشدُ:

ليسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا المَيِّتُ مَبِيتُ الأحياءِ
إِنَّمَا المَيِّتُ مَنْ تَراهُ كَثِيباً كاسِفاً بآلهُ قَلِيلَ الرِّجاءِ
وكانَ إذا أصبحَ وفرغَ من نسيبِهِ، أنشدَ:

وما الدُّنيا بِباقِيَةِ لِحْيٍ ولا حَيٍّ على الدُّنيا بِباقيِ
وإذا أَمسى، بكى وتَمَثَّلَ:

يَسُرُّ الفَتَى ما كانَ قَدَمٌ مِنْ تَفَى إذا عَرَفَ الدَّاءَ الذي هُوَ قَاتِلُهُ
قال حُمَيْدٌ: دخلنا على الحسنِ يوماً، فوجدناه يبكي ويُنشدُ:

دَعُوهُ لا تَلُومُوهُ دَعُوهُ فَقَدْ عَلِمَ الذي لَمْ تَعْلَمُوهُ
رَأَى عِلْمَ الهُدَى فَسَمَّا إِلَيْهِ وَطَانِبَ مَطْلَباً لَمْ تَطْلُبُوهُ
أَجَابَ دُعَاءَهُ لَمَّا دَعَاهُ وَفَإَمَ بِأَمْرِهِ وَأَضَعْتُمُوهُ
بِنَفْسِي ذَاكَ مِنْ فُطْنٍ لَيْبٍ تَذَوَّقَ مَطْعِماً لَمْ تَطْعُمُوهُ

قال: وسمعتُهُ يوماً آخر يبكي ويقولُ: أَيُّ رَبِّ! مَنَى أَوْدِي شُكْرِ يُعَمِّتُكَ
التي لا تُؤدِّي إِلَّا بِنِعْمَةٍ مُحَدَّثَةٍ، ومَعُونَةٍ مُجَدَّدَةٍ؟! ما أَحْسَرَ صَفْقَةً مِنْ
هُوَفٍ عن بابِكَ، وَضُرِبَ دُونَهُ حِجَابُكَ! ثم أنشدَ:

إذا أنا لَمْ أَشْكُرْكَ جَهْدِي وَطَاقَتِي وَلَمْ أَصِفِ مِنْ قَلْبِي لَكَ الوُدَّ أَجْمَعَا
فَلا سَلِمَتْ نَفْسِي مِنَ السُّقَمِ سَاعَةً وَلَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي مِنَ الشَّمْسِ مَطْلَعَا

ثم استغفرَ وبكى، وقال: القلبُ الذي يُحِبُّ اللهَ يُحِبُّ النَّعَبَ، وَيُؤَيِّرُ
النَّصَبَ، هَيْهَاتَ، لا يَنالُ الجنةَ مَنْ يُؤَيِّرُ الراحةَ. مَنْ أَحَبَّ سَخَا. مَنْ

الرواية . مات سنة الثنتين وسبعين ومئة .

(١) صالحُ المُرِّي، الزاهدُ، وأعطى أهلَ البصرة، أبو بشرٍ بنُ بشرٍ القاصي، كان ضعيفاً .

أَحَبُّ، سَخَا بِنَفْسِهِ إِنْ صَدَقَ، وَتَرَكَ الْأَمَانِيَّ؛ فَإِنَّهَا سِلَاحُ النَّوْكَى^(١).

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَوْمًا: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا بَالُ الْمُتَهَجِّجِينَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجُوهًا؟ قَالَ: لَأَنَّهُمْ خَلَّوْا بِالرَّحْمَنِ، فَأَلْبَسَهُمْ مِنْ نُورِهِ، فَهَوَّ يَبْدُو عَلَى وَجُوهِهِمْ.

وَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! كَيْفَ تَرَى فِي الرَّجُلِ يُذْنِبُ، ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَمُودُ؟ قَالَ: مَا أَعْرِفُ هَذَا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَذَكَرَ بِحَضْرَتِهِ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - فَقَالَ: قَدَّسَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ، شَهِدُوا وَغَبْنَا، وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا، فَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ اتَّبَعْنَا، وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَتَفَنَّا.

وَكَانَ يَقُولُ: كُنْتُ الْمَسَاجِدَ وَعِمَارَتَهَا بِالذِّكْرِ نُقِرْدُ الْخُورِ الْعَيْنِ.

وَكَانَ يَقُولُ: حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمَوْتَ مُورِدُهُ، وَالْقِيَامَةَ مَوْعِدُهُ، وَالْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ مَشْهُدُهُ، أَنْ تَطُولَ فِي الدُّنْيَا حَسْرَتُهُ، وَفِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ رَغْبَتُهُ.

وَأَتَّصَلَ بِهِ أَنَّ رَجُلًا اغْتَابَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبَقٍ فِيهِ رُطْبٌ وَقَالَ: أَهْدَيْتَ إِلَيَّ بِاغْتِيَابِكَ لِي حَسَنَاتِكَ، فَكَافَأْتُكَ عَلَيْهَا، فَاسْتَخِيَا الرَّجُلُ، وَلَمْ يَعُدْ لَذِكْرِهِ بِسُوءٍ.

وَكَانَ إِذَا رَأَى أَنَّ رَجُلًا كَثِيرُ الْبَطَالَةِ غَيْرُ مُسْتَغْلٍ بِمَا يَعْنِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ، أُنْشَدَهُ:

يَسْرُوكَ أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لَهْمُ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْرِ زَادٍ
وَكَانَ يَقُولُ: يَا بَنَ آدَمَ! نَهَارُكَ ضَيْقُكَ، فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَحْسَنْتَ

إِلَيْهِ، ارْتَحَلَ بِحَمْدِكَ، وَإِنْ أَسَأَتْ إِلَيْهِ، ارْتَحَلَ بِذَمِّكَ، وَكَذَلِكَ لَيْلَتُكَ.

وَوُلِدَ لَهُ غُلَامٌ فَهَنَاهُ جُلَسَاؤُهُ، وَقَالُوا: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي هَبْنِيهِ، وَزَادَكَ مِنْ نِعْمَتِهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَسَنَةٍ، وَنَسَأُ اللَّهُ الزِّيَادَةَ مِنْ كُلِّ يُعْمَةٍ، وَلَا مَرَحَبًا بِمَنْ إِنْ كُنْتُ عَائِلًا أَنْصَبَنِي، وَإِنْ كُنْتُ غَنِيًّا أَذْهَلَنِي، وَبِمَنْ لَا أَرْضَى بِسَعْيِي لَهُ سَعِيًّا، وَلَا بِكَذْبِي لَهُ فِي الْحَيَاةِ كَذًّا، حَتَّى أَشْفِقَ عَلَيْهِ مِنَ الْفَاقَةِ بَعْدَ وَفَاتِي، وَأَنَا فِي حَالٍ لَا يَصِلُ إِلَيَّ مِنْ هَمِّهِ حُزْنٌ، وَلَا مِنْ فَرَحِهِ سُرُورٌ.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ خَوْفُكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَمْنِكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ.

وَكَانَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا لَا شَكَّ فِيهِ أَصْبَحَ شَكًّا لَا يَقِينُ فِيهِ، مِنْ يُقِينُنَا بِالْمَوْتِ، وَعَمَلُنَا لغيرِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَفْضَلَ مِنْ صَدَقَةِ اللِّسَانِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا صَدَقَةُ اللِّسَانِ؟ قَالَ: «الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ، يُخْفِي اللَّهُ بِهَا الذَّمِّمَةَ، وَيَقْضِي الْحَاجَةَ، وَيُفْرِجُ الْكُرْبَةَ».

(١) النَّوْكَُ - بِالْفِصْمِ وَالْفَتْحِ -: الْحَدَقُ.

الفصل الثاني

فيما أورده من الآداب ومكارم الأخلاق

رُوي عن الحسن - رحمه الله - أنه كان يقول: قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلي من اعتكاف شهر.

وسأله رجل عن حسن الخلق ما هو؟ فقال: البذل، والعفو، والاحتمال.

وكان يقول: مروءة الرجل: صدق لسانه، واحتماله مؤنة إخوانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفه الأذى عن جيرانه.

وكان يقول: لو شاء الله - عز وجل - لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء ولا غني فيكم، ولكن ابتلى بعضكم ببعض لينظر كيف تعملون.

ثم دلَّ عبادة على مكارم الأخلاق، فقال - جلَّ جلاله -: ﴿وَيُؤْتِرُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وقال: عدة الكريم: فعل ونعجيل، وعدة اللئيم: تسويف وتطويل.

(١) سورة الحشر: ٩.

وكان يقول: ما أنصفك من خلفك إجلاله، ومنعتك ماله.

وقال: كنا نعد البخل من الذي يُقرض أخاه الدرهم؛ إذ كنا نعامل بالمشاركة والإيثار. والله! لقد كان أحد من رأيت وصحبت يسئ إزاره لمؤثر أخاه بنصفه، ويبقى له ما بقي، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يصوم، فإذا كان عند فطره، مرَّ على بعض إخوانه، فيقول: إني صُمتُ هذا اليوم لله، وأردتُ إن تقبله الله مني أن يكون لك فيه حظ، فهل شئاً من عشايتك، فيأتيه الآخر ما تيسر من ماء وتمر فيفطر عليه يتتغي أن يكسبه أجراً، وإن كان غنياً عن الذي عنده.

وكان يقول: أدركت أقواماً، وإن الرجل منهم ليخلف أخاه في أهله وولديه أربعين سنة بعد موته.

وكان يقول: إذا دخل الرجل بيت صديقه، فلا بأس عليه أن يتناول مما حضر من طعام وفاكهته بغير إذن.

وكان يقول: ما من نفقة إلا والعبد يحاسب عليها، إلا نفقته على والدته فمن دونهما، أو نفقته على أخيه في الله، وصاحبه في طاعته؛ فإنه روي أن الله - سبحانه وتعالى - يستحي أن يحاسبه عليها.

وكان يقول: ليس من المروءة أن يربح الرجل على أخيه.

وكان يقول: احذر ممن نقل إليك حديث غيرك، فإنه سينقل إلى غيرك حديثك.

وكان يقول: ابن آدم! عملك لك، انظر على أي حال تُحب أن تلقى عليها ربك؟

وكان يقول: إن لأهل الخير علامة يعرفون بها: صدق الحديث، وأداء

الأمانة، والوفاء بالعهد، وقلة الفخر والخيلاء، وصلته الرحيم، ورحمة الضعفاء، وبذل المعروف، وحسن الخلق، وسعة الحلم، وبث العلم، وقلة منافاة^(١) النساء.

وكان يقول: ابن آدم! عفت عن محارم الله تكن عابداً، وارضى بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن عدلاً، وأقلل الضحك فإنه يُميت القلب كما يموت البدن.

وكان يقول: أيها الناس! إنكم لا تنالون ما تُحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون. وكان يقول: الصبر كثر من كنوز الجنة، وإنما يُدرك الإنسان الخير كله بصبر ساعة.

وكان يقول: من أُعطِيَ درجة الرضا، كُفِيَ المؤمن، ومن كُفِيَ المؤمن، صبر على المحن.

وقيل: تساب رجُلان بحضرة الحسن، فقام المسبوب وهو يمسح العرق عن وجهه، ويتلو: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢)، فقال الحسن: لله درّه، عفلها - والله - حين ضيعها الجاهلون.

وقال: ابن آدم! لتصبرن أو لتهلكن.

وقال: لقد روي: أن رجلاً شتم أبا ذر - رحمه الله - فقال: إن بيني وبين الجنة عقبة، إن جرت بها، فأنا خير مما نقول، وإن عوج بي دونها إلى

(١) منافاة النساء: مجالتهن.

(٢) سورة الشورى: ٤٣.

النار، فأنا أشدّ ممّا قلت، فأنشأها الرجل: فإنك نصير إلى من يعلم خاتنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقيل: شتم رجل رجلاً، فقال: لولا أن الله - عز وجل - لا يسمع، لأجبتك.

وكان يقول: الصبر صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عن المعصية، فمن قدر على ذلك، فقد نال أفضل الصبرين.

وكان يقول^(١): ما من جرعة أحب إلى الله - عز وجل - من جرعة مصيبة موجهة يتجرعها صاحبها بخس عزاء وصبر، أو جرعة غيظ يحملها بفضل عفو وحلم.

وكان يقول: ابن آدم! إنك لن تجمع إيماناً وخيانةً، كيف تكون مؤمناً ولا يأمّنك جارك؟ أو تكون مسلماً ولا يسلم الناس منك، أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٢).

وكان - عليه السلام - يقول: «ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه»^(٣).

(١) الزيادة من المطبوع، ولا يستقيم الكلام إلا بها.

(٢) حديث حسن رواه الإمام أحمد (١/١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١). والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٨٨). وابن حبان «الإحسان» (١/٣٦٦). و«السنن» لعبد الله برفم (٨٠٥). و«شرح السنن» (١/٧٥)، وحسنه.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي شريح في الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه (١٠/٤٤٣) بلفظ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: من يارسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه. ومسلم في الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار (١/٤٦).

ثم يقول الحسن - رحمه الله -: ابن آدم! إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا نعيب الناس بعيب هو فبك، فأصلح عيب نفسك، فإنك لا تصلح عيباً إلا وجدت عيباً آخر أنت أولى بإصلاحه.

ابن آدم! إن تكن عدلاً، فاجعل لك عن غيوب الناس شغلاً؛ فإن أحب العباد إلى الله من كان كذلك.

وقيل: أنشد رجل يوماً:

وأجراً من رأيت يظهر عيب على عيب الرجال ذوو الغيوب
فقال: لله در القائل! إنه كما قال.

وكان يقول: ابن آدم! ما أوهنك وأكثر غفلتك! تعيب الناس بالذنوب، وتساها من نفسك، وتبصر القذى في عين أخيك، وتعمى عن الجذع معتزلاً في عينك، ما أقل إنصافك، وأكثر حيفك!

وكان يقول: روي أن رسول الله ﷺ قال: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»^(١). وذلك أن الله - عز وجل - غفر لهم ذنوبهم، بما أسدوه من المعروف إلى خلقه في دار الدنيا، ثم يقول لهم يوم القيامة: «هَبُوا حَسَنَاتِكُمْ لِمَنْ سُئِلَ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، فَيَهَبُونَ حَسَنَاتِهِمْ، فَيَكُونُونَ أَهْلَ مَعْرُوفٍ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا.

وسئل: أي الأخلاق أفضل؟ فقال: الجود والصدق.

وكان يقول: أدركت يوماً ما كان أحدهم بدنياره ولا يدرهمه أحق به من أخيه المسلم، فما بالكُم - معشر الناس - تحملون على ما به تؤاخذون، وعليه تحاسبون؟!

وسمع رجلاً يحاسب آخر، ويقول: بقي لي عليك دائق^(١)، فقال: لا تدنقوا فئدتني الله عليكم، لعن الله الدائق، ومن دنق الدائق.

وكان يقول: إنه لا دين لمن لا مروءة له.

وكان يقول: من حبس الطعام أربعين يوماً يطلب إعلاءه، ثم لو طعمه، وخبره، وأطعمه المساكين، لم ينح من إثمه، ولا يسلم من ذنبه.

وكان يقول: ليس حسن الجوار كف الأذى، وإنما حسن الجوار احتمال الأذى.

وكان يقول: أربع من كن فيه عصمه الله - عز وجل - من الشيطان، وعافاه من النار: من ملك نفسه عند الرهبة والرغبة، والحدة والشهوة.

وكان يقول: العلم خير ثواب، والأدب أزين خدين^(٢)، والتقوى خير زاد، والعبادة أربع بضاعة، والعقل خير وافي، وحسن الخلق خير قرين، والحلم خير وزير، والقناعة أفضل غنى، والتوفيق خير معين، وذكر الموت أو عظم واعظ.

وكان يقول: لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وحكم الحكماء، ويعجري في الحق مجرى الشفهاء.

وكان يقول: أربع من كن فيه أدخله الله الجنة، ونشر عليه الرحمة: من

(١) رواه الحاكم (١/١٢٤). وابن عساکر (٢/٣٠١). وفي «كشف الخفاء» برقم (٨١٣).

و «مجمع الزوائد» من طرق لا تخلو من مقال (٧/٢٦٢). و «مسند الفردوس»

(١/٤٠٩). وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٣١٩). وقد صححه الشيخ الألباني في

«صحيح الجامع» برقم (٢٠٣٠). ورواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص ٤٧٨).

(١) الدائق: هو شئ من الدينار والدرهم. انظر: «لسان العرب» (١٠/١٠٥).

(٢) أزين خدين: خير صديق. انظر: «لسان العرب» (١٣/١٣٩).

بِرِّ وَالِدَيْهِ، وَرَفَقَ بِمَمْلُوكِهِ، وَكَفَلَ الْيَتِيمَ، وَأَعَانَ الضَّعِيفَ.

وكان يقول: إن الحسد في دين المسلم أسرع من الآكلة في جسده.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ»^(١).

وكان يقول: المؤمنُ الكَيِّسُ الْفَطِنُ، الَّذِي كُلَّمَا زَادَهُ اللَّهُ إِحْسَانًا، ازدادَ من الله خَوْفًا.

وكان يقول: المؤمنُ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَأَشَدُّهُمْ مِنْ اللَّهِ خَوْفًا، لَوْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا، مَا أَمِنَ حَتَّى يُعَايِنَ، وَيَقُولُ أَبَدًا: لَا أَنْجُو، لَا أَنْجُو، وَالْمَنَافِقُ يَقُولُ: سَوَادُ النَّاسِ كَثِيرٌ، وَمَا عَسَى ذَنْبِي فِي جُمْلَةِ الذُّنُوبِ؟ إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ، وَسَيَغْفِرُ لِي.

ثم يقول الحسن: ابن آدم! تعمل بالسيئات، وتتمنى على الله الأمانى؟!

وكان يقول: مَنْ سَاءَ خُلُقُهُ، عَذَّبَ نَفْسَهُ، وَمَنْ كَثُرَ مَالُهُ، كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ، كَثُرَ سَقَطُهُ.

وكان يقول: لَوْلَا الْعِلْمُ، كَانَ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ.

ورُوِيَ عَنْهُ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِمَّا

يُضْفِي لَكَ وَدَّ أَخِيكَ أَنْ تُبْدَاهُ بِالسَّلَامِ إِذَا لَقَيْتَهُ، وَأَنْ تَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ يَقُولُ الْحَسَنُ: لَقَدْ عَلَّمَكُمْ السَّلَفُ الصَّالِحُ الْأَدَبَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَتَعَلَّمُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ.

وكان يقول: مَا بَالُنَا يَلْقَى أَحَدُنَا أَخَاهُ فَيُخْفِي السُّؤَالَ عَنْهُ، وَيَدْعُو لَهُ وَيَقُولُ: غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَكَ، وَأَدْخَلَنَا جَنَّتَهُ، فَإِذَا كَانَ الدِّينَارُ وَالذَّرْهَمُ، فَهِيَهَاتَ!؟ وَيَحْكُمُ مَا هَكَذَا كَانَ سَلَفُكُمْ الصَّالِحُ، فَعَلَامَ تَرَكْتُمُ الْإِقْتِدَاءَ، وَقَدْ أُمِرْتُمْ بِهِ!؟

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! مَا بَالُنَا نَتَقَارَبُ فِي الْعَافِيَةِ، وَإِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ تَبَايَنَّا!؟ مَا هَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ خِلَافٍ عَلَيْهِم.

وسَمِعَ رَجُلًا يُكْثِرُ الْكَلَامَ، فَقَالَ: يَا بْنَ أَخِي! أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، لَقَدْ قِيلَ: مَا شَيْءٌ أَحَقُّ بِسُجُنٍ مِنْ لِسَانٍ.

ورُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَهَلْ يُكَبِّ النَّاسُ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ السِّتَنِهِمْ»^(١).

وكان يقول: لِسَانُ الْعَارِفِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ تَفَكَّرَ، فَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ لَهُ، تَكَلَّمَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ، سَكَتَ، وَقَلْبُ الْجَاهِلِ وَرَاءَ لِسَانِهِ، كُلَّمَا هَمَّ بِكَلَامٍ، تَكَلَّمَ بِهِ.

(١) رواه الترمذي من حديث طويل في الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة: برقم (٢٦١٧). وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة: برقم (٣٩٧٣). وأحمد (٥/٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧). وقد شرح ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» (٢/١٣٤)، فليراجع، والحديث صحيح، بطلناه.

(١) رواه الدارمي (١٠٢/١) مرسلاً، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٩٠/١)، وابن أبي شيبة في «الزهد» (١٣/٢٣٥)، وابن المبارك في «الزهد» (ص)

وكان يقول: رُوي أن رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ بُدْلاءَ أُمَّتِي لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ يَدْخُلُونَهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ، وَسَخَاوَةِ الْأَنْفُسِ، وَالرَّحْمَةِ لِكَاثَةِ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

وكان يقول: رُوي أَنَّ مُنَادِيًا ينادي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِيَتَّعَمَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللَّهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا رَجُلٌ قَضَى لِأَخِيهِ حَاجَةً، أَوْ عَفَا لَهُ عَنْ مَظْلَمَةٍ، أَوْ أَشَدَّى إِلَيْهِ نِعْمَةً.

وكان يقول: الْعَاقِلُ لَا يَشْتَرِي عَدَاوَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ بِمِوَدَّةِ أَلْفِ رَجُلٍ، إِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ، خَسِرَ وَلَمْ يَرْبَحْ.

وكان يقول: عِزُّ الشَّرِيفِ أَدَبُهُ، وَتَقَرُّاهُ حَسَبُهُ.

وكان يقول: مَنْ رَمَى أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ إِلَى اللَّهِ - عِزٌّ وَجَلٌّ - مِنْهُ؛ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبْتَلَى بِمِثْلِ ذَلِكَ الذَّنْبِ.

وقيل: سَأَلَهُ الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ^(٢)، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا تَقُولُ فِي

(١) ضعيف، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من طريق صالح المري عن الحسن بن أبي سعيد الخدري. وصالح المري ضعيف كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في «التقريب». وتدلّيس الحسن، وقد عمن.

وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «السخاء» مرسلاً. والبيهقي في «شعب الإيمان». ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» من طريق ابن لال معلقاً عن محمد بن عبد العزيز الدينوري. ومحمدٌ هنا قال فيه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦٢٩/٣): «منكر الحديث».

وقد ساق له الحافظ ابن حجر في «اللسان» من منكراته هذا الحديث. انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني: برقم (١٤٧٧)، فقد أشار إلى شدة ضعفه.

(٢) هو الربيع بن صبيح السعدي البصري مولى بني سعد، من أعيان مشايخ البصرة، أبو

العشر ركعات التي بعد صلاة العشاء، أتعطَّعُ هي أم سنة؟ فقال: ليست بسنة، إنَّها لو كانت سنة، ما وسَّعَ المسلم تركُّها، ولكنَّ يابنَ أخي! مِنْ أَدَبِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ، وَقَوَامُ أَمْرِهِ إِذَا عَوَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الْخَيْرِ عَادَةً، أَوْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ عِبَادَةً، أَنْ يَدَّأَبَ فِيهَا، وَيُقِيمَ دَهْرَهُ عَلَيْهَا^(١).

وكان يقول: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: الْغِنَى فِي الْقَنَاعَةِ، وَالسَّلَامَةُ مِنَ النَّاسِ، وَالْعَافِيَةُ فِي رَفْضِ الشَّهْوَةِ، وَالنَّجَاةُ فِي تَرْكِ الرَّغْبَةِ، وَالتَّمَتُّعُ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ بِالصَّبْرِ فِي الْعُمُرِ الْقَصِيرِ.

ثم يقول: تَأَذَّبُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - بِأَدَابِ اللَّهِ؛ وَحَافِظُوا عَلَى مَا فِي كُتُبِ اللَّهِ؛ تَكُونُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ.

وكان يقول: مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً؛ إِلَّا وَعَلَيْهِ فِيهَا تِبَاعَةٌ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نِعْمَتَيْهِ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -؛ فَإِنَّ اللَّهَ - عِزٌّ وَجَلٌّ - يَقُولُ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

وكان يقول: مَا أَطَالَ عَبْدٌ الْأَمَلَ إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَلَ.

وكان يقول: إِنَّمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عِدَّةٌ، فَإِذَا مَضَى لَكَ يَوْمٌ، فَقَدْ مَضَى بَعْضُكَ.

- جَعْفَرُ، تُوْفِي غَازِيَا بِأَرْضِ الْهِنْدِ سِتِينَ وَشَةَ.

(١) إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ بِمَا شَرَعَهُ لَنَا مِنَ الْعِبَادَاتِ التَّرْقِيفِيَّةِ، وَلَيْسَتِ الْبِدْعِيَّةُ الَّتِي لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا. وَمَا فَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَلَى وَجْهِ التَّعْبُدِ فَهُوَ عِبَادَةٌ مَشْرُوعَةٌ قَدْ أَمَرْنَا بِفَعْلِهَا. وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: أَنَّ يَدَّابَ الْعَبْدِ يَقِيمُ دَهْرَهُ عَلَى الْعِبَادَةِ الْمَشْرُوعَةِ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِفَعْلِهَا.

انظر: «قاعدة عظيمة نافعة في العبادات والنرق بين شرعيها وبدعيها» لشيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (٦٠).

(٢) سورة ص: ٣٩.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ ابْنَ مَسْعُودٍ كَأَنَّهُ عَابَتُكُمْ حِينَ قَالَ: زَاهِدْكُمْ رَاغِبٌ، وَمُجْتَهِدْكُمْ مُقَصِّرٌ، وَعَالِمُكُمْ جَاهِلٌ.

وكان يقول: مَنْ خَافَ اللهَ، أَخَافَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ، أَخَافَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وكان يقول: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: خَالِطُوا وَزَايِلُوا^(١).

ثم يقول الحسن: خَالِطُوا النَّاسَ فِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَزَايِلُوهُمْ فِي الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ.

وكان يقول: يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ أَرْبَعُ أَشْيَاءَ: مَعُونَةٌ مُخْسِنِينَ، وَإِجَابَةٌ دَاعِيِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لِمُذْنِبِهِمْ، وَالِدَّعْوَةُ إِلَى الْحَقِّ لِمُذْبِرِهِمْ.

وكان يقول: مَنْ وَافَقَ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ شَهْوَةً، أَوْ قَضَى لَهُ حَاجَةً، غَفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وكان يقول: رَوَى أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ لِآدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: يَا آدَمُ! أَرْبَعٌ فِيهِنَّ جَمِيعُ الْأَمْرِ لَكَ وَلِوَلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ؛ وَاحِدَةٌ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ. فَأَمَّا الَّتِي لِي، فَإِنَّ تَعَبُدَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ، فَعَمَلُكَ أَجْرِيكَ بِهِ أَفْقَرُ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَعَلِيكَ الدُّعَاءُ، وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنَّ تَصَحَّبَهُمْ بِمَا تُرِيدُ أَنْ يَصْحَبُوكَ بِهِ^(٢).

وكان يقول: الْفَهْمُ رِيعَةُ الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ دَلِيلُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ فَاوِدُ الْخَيْرِ، وَالْهَوَى مَرْكَبُ الْمَعَاصِي، وَالْمَالُ دَاءُ الْمُنْكَرِينَ، وَالذُّنْيَا سِرْقُ الْآخِرَةِ، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ قَوِيَ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّكْنِي، وَلَكِنَّهُ بِمَا وَفَّرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْأَعْمَالُ.

وقيل: نَعِيَ دَاوُدَ الطَّائِيَّ لِلْحَسَنِ - رَحِمَهُ اللهُ -، فَقَالَ: غَفَرَ اللهُ لَهُ، وَاللَّهُ يَلْقَى كَانًا كَالْعَافِيَةِ لَا يُعْرِفُ قَدْرَهَا إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا، سَمِعَ ذَلِكَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ^(١) فَقَالَ:

وَالْحَادِثَاتُ وَإِنْ أَصَابَكَ بُؤْسُهَا فَهُوَ الَّذِي حَقَّ أَنْتَالَ نَعِيمَهَا
وقيل: دَعَاهُ يَوْمًا رَجُلٌ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ، فَنَادَاهُ: [يَا أَبَا سَعِيدٍ! فَقَالَ:
أُمَّا لَكَ بِالذُّوَانِي وَجَمْعِهَا مَنَعَكَ يَا بَنَ أَخِي أَنْ تَقُولَ: [يَا أَبَا سَعِيدٍ! ثُمَّ
قَالَ: تَعَلَّمُوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - الْعِلْمَ لِلْأَدْيَانِ، وَالطَّبَّ لِلْأَبْدَانِ، وَالنَّحْوَ
لِلتَّقْوِيمِ اللِّسَانِ.

وكان يقول: مَنْ لَحَنَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَالَ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢)، وَاللَّحْنُ مِنْ أَكْبَرِ الْبَاطِلِ.

وقد ليس الحسن أيضاً. انظر: «مجمع الزوائد» (١/٥١).

(١) حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج انطائي أبو تمام الشاعر المعروف، ولد في جاسم في آخر خلافة الرشيد سنة تسعين ومئة، وقيل غير ذلك. مات سنة اثنين وثلاثين بعد المئتين، وقيل غير ذلك. «خزانة الأدب» (١/٣٥٦).

(٢) هذه الزيادة من المطبوع، ولا يستقيم الكلام إلا بها.

(٣) سورة فصلت: ٤٢.

(١) والترايل: التباين، والتفرق. قال تعالى: ﴿فَرَزَقْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

(٢) رواه أبو يعلى والبخاري ومثله من حديث أنس. وفي إسناد صالح المري، وهو ضعيف.

وقال له رجل: إنك يا أبا سعيد لا تَلَحُّنْ! فقال: يابن أخي! لقد سَبَقْتُ
اللَّحْنَ.

وقيل له: ما المروءة؟ قال: ألا تطمع فتدُلَّ، ولا تسأل فتَقِلَّ.

وكان يقول: إذا لم تكن حليماً، فتَحَلَّمْ، وإذا لم تكن عالِماً، فتعلَّمْ،
فقلَّما تشبَّه رجلٌ بقوم إلا كان منهم.

وكان يقول: أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان كاملاً، وَمَنْ تعلقَ بواحدةٍ منهنَّ كان
من صالحِ قومه: دينٌ يُرشدُهُ، أو عقلٌ يُسدِّدُهُ، أو حسَبٌ يصونه، أو حياءٌ
يوقِّره.

وكان يقول: إلى مَنْ يَشْكُو المسلم إذا لم يَشْكُ لأخيه المسلم؟ وَمَنْ
ذا الذي يَلْزَمُهُ من نفسه مِثْلُ الذي يَلْزَمُهُ؟ إن المسلمَ مرآةُ أخيه المسلم،
يُبَصِّرُهُ عيبه، ويغفرُ له ذنبه. قد كان مَنْ قبلَكُمْ مِنَ السَّلَفِ الصالح، يَلْقَى
الرجلَ الرجلَ فيقول: يا أخِي! ما كُلُّ ذنوبي أَبْصُرُ، ولا كُلُّ عُيُوبي أَعْرِفُ،
فإذا رأيتَ خيراً فَمَرَّنِي، وإذا رأيتَ شراً فأنهني، وقد كان عمرُ بنُ الخطاب
- رضي الله عنه - يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً أهْدَى إلينا مَساوِينا، وكان أحدُهم
يَقْبَلُ مَوْعِظَةَ أخيه، فيستغفِرُ بها.

وكان يقول: المؤمنُ شُعْبَةٌ من المؤمنين، يحزنُ إذا حزنَ، ويفرحُ إذا
فرحَ.

وكان يقول: إنَّ لك من عليلِكَ نصيباً، فتَحَيَّرِ الإخوانَ والأصحابَ،
وجانبِ الأمرَ الذي يُعَابُ.

وكان يقول: تَرَفُّعُوا عن بعضِ الأمور: فإن الرجلَ لياكلُ الأَكْلَةَ، ويدخلُ
الْمَدْحَلَ، ويجلسُ المَجْلِسَ بغيرِ قلبه، ويذهب دينه، وهو لا يشعرُ.

وقيل له: يا أبا سعيد! إن قوماً يحضرونَ مجلسَكَ يحفظون عليك
سَقَطَاتِ كَلَامِكَ لِيُعْتَبَرُوا بِذلك، فقال: يابن أخي! لا يكن في ذلك عليك
شيءٌ؛ فإنني طَمَعْتُ نَفْسِي في دُخُولِ الجَنانِ، ومُجاوِرَةِ الرحمن، وسرافقةِ
الأنبياء عليهم السلام، ولم أَطْمَعِها في السلامة من الناس.

وكان يقول: مَنْ طلبَ العلمَ لله، لم يَلْبَثْ أن يرى ذلك في خُشوعه،
وَزُهده، وتواضعه.

وكان يقول: احرصوا على حُضورِ الجَنائِزِ؛ فإن فيها ثلاثة أجور: أجرُ
لِمَنْ عَزَى، وأجرُ لِمَنْ صَلَّى، وأجرُ لِمَنْ وارى، وقد رُوِيَ: «أنَّ مَنْ بَعَثَ
جَنَازَةً تُوارى غُفِرَ له سَبْعُونَ مَوْيِقَةً»^(١).

وقيل: لما توفيتِ النَّوَارُ زوجةُ الفرزدقِ، حضرَ جنازَتَها وجوهُ أهلِ
البصرة، وحضرَ الحَسَنُ، فسأَرَهُ الفرزدقُ؛ وقال له: أتدري ما يقولُ
الناسُ يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون: حضرَ هذا القبرَ
خيرُ الناسِ، وشَرُّ الناسِ، قال الحَسَنُ: وَمَنْ يريدونَ بذلك؟ قال:
يزعمون أنَّك - رحمَكَ اللهُ - خيرُ الناسِ، وأني شَرُّ الناسِ، فقال الحَسَنُ:
لستُ بخيرهم، ولستُ بِشَرِّهم، ولكن ما أَعْدَدْتَ لِمِثْلِ هذا اليوم؟ فقال:
شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ منذ ستينَ سنةً، فلما دفنتِ النَّوَارُ قال الفرزدقُ:

أخافُ وراءَ القبرِ إنْ لَمْ تُعَافِنِي أَشَدَّ مِنَ القبرِ التَّهَابِ وَأَضْيَقَا
إذا قَادَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِدٌ عَنِيفٌ وَسَوَاقٌ يَسُوقُ الْفَرَزْدَقَا

(١) لم أجده بهذا اللفظ. وقد ورد عند البخاري ومسلم بما يقاربه عن أبي هريرة: قال:
قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنائزَ حتى يصلَّى عليها فله فيراط، ومن شهد بها حتى
تدفن فله نيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الجبلَينِ العظيمين».

لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار معلول الفلادة أزوفا
فبكى الحسن حتى انتحب، وقال: إن من الشعر لحكمة^(١)، ثم قال:
يُرْحَمَكَ اللهُ أبا فراس! اعمل لمثل اليوم إن كنت ذا نظر صحيح؛ فإنك
تقدم على جواد عدل، وكأن قد، ثم افترقا، ومات الفرزدق، فرثي في
النوم وهو يقول: رُحِمْتُ بيومي مع الحسن.

وكان الحسن يقول: أيتها الناس! إياكم والتسوية؛ فإنني سمعت بعض
الصالحين يقول: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ثم لا نتوب حتى
نموت.

وكان يقول: في الطعام اثنتا عشرة خصلة: أربع فريضة، وأربع سنة،
وأربع أدب.

أما الفريضة: فالتسمية، واستطابة الأهل، والرضا بالموجود،
والشكر على النعمة.

وأما السنة: فالجلوس على الرجل اليمنى، والأكل من بين يدي
الأكلي، وتناول الطعام بثلاثة أصابع اليد اليمنى، ولعنق الأصابع.

وأما الأدب: فغسل اليد قبل الطعام وبعده، وتصغير اللقم، وإجادة
المضغ، وصرف البصر عن وجوه الآكلين.

وقيل: جلس يوماً، فأتته امرأة ثم تر الناس مثلها، فقالت: يا أبا
سعيد! يجوز للرجل أن يتزوج من النساء أربعاً؟ قال: نعم، فقالت: فهل
يجوز مثل ذلك للنساء؟ قال: لا، قالت: قلم؟ قال: لأن الله عز وجل -

أحل ذلك للرجال، وحرمه على النساء، فقالت: بعيشك يا أبا سعيد!
لا تفت بذلك أزواج النساء، ثم انصرفت، وأقبعها الحسن بصره، وقال:
ما على من ملك هذه ألا يرى غيرها. قيل: وما رأي الحسن قبلها
ولا بعدها مال إلى شيء من الدنيا ولا عرج عليه.

وقيل: كان لرجل من الصالحين عند رجل ودعة، فمات المودع
لعجاء، فسأل صاحبها عنها، فقال ورثة الميت: ما نعلم لها موضعاً، فجاء
الرجل إلى الحسن فأخبره، فقال له: إئت زمزم فتوضأ وصل مخلصاً، ثم
ادع باسم صاحبك الذي أودعته، فإن أجابك، فسأله عن أمانتك التي
أودعته، ففعل، ولم يجبه أحد، فأتى الحسن فأخبره، فقال له: إئت اليمن
فقف عند وادي برهوت، وادع صاحبك باسمه، فإذا أجابك فسأله، فأتى
اليمن، وفعل ما أمره الحسن به، فأجابه الرجل، فسأله عن أمانته، فعرفه
مكانها، ثم قال السائل: يا أخي! ألم تك رجلاً صالحاً، فما الذي دهاك
حتى ألفت حيث أنت؟ فقال: كنت قاطعاً للرحم، نعوذ بالله من سوء
القضاء^(١).

وكان الحسن يقول: جهد البلاء أربعة: كثرة العيال، وقلة المال،
وجار سوء في دار المقام، وزوجة تجور.

وكان يقول: أعز الأشياء: درهم حلال، وأخ في الله إن شاورته في
دنياك وجدته متين الرأي، وإن شاورته في دينك وجدته بصيراً به.

(١) إن نسبة هذه الحكاية إلى الحسن البصري لا تصح؛ فإن المقرر في الشريعة أن الإنسان
ينقطع عن الدنيا بعد موته، وليس لأحد أن يعتقد أن الأموات ينفعون أو يضرون، أما
أثر أعمالهم فينتفع بها بعد موتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ
مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِأَلْبُورٍ﴾ [فاطر: ٢٢].

(١) وهو من حديث أبي بن كعب يرفعه، رواه البخاري في الأدب، باب: ما يجوز في
الشعر والرجز... (١٠/٥٣٧).

وكان يقول: يكون الرجل عالماً، ولا يكون عبداً، ويكون عبداً، ولا يكون عاقلاً، ولقد كان مسلم بن يسار^(١) عبداً عالماً عاقلاً.

وكان يقول: لله دَرُّ بكر بن عبد الله، لقد سمعته بأمرٍ بالحلم، ويبحثُ على العَفْو، ويقول: أَيُّهَا النَّاسُ! أَطْفِئُوا نَارَ الْغَضَبِ بِذِكْرِ نَارِ جَهَنَّمَ؛ فقد كان أبو الذَّرْدَاءِ يقول: أقرب ما يكون العبدُ من غضبِ الله إذا غَضِبَ.

وكان الحسنُ يقول: مَنْ تَسَرَّبَلَ الْعَقْلَ، أَمِنَ مِنَ الْهَلَكَةِ.

وكان يقول: الْمَغْبُوتُ مَنْ غَبِنَ عَقْلَهُ.

وكان يقول: إِصْحَبِ النَّاسَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ الثَّوَاءَ^(٢) بَيْنَهُمْ قَلِيلٌ.

قال يونس بن حبيب: سمعتُ الحسنَ البصريَّ - رحمه الله - يقول: ائْتَانِ لَا يَصْطَلِحَانِ أَبَدًا: الْفَنَاءَةُ وَالْحَسَدُ، وَإِنِّي لَا يَفْتَرِقَانِ أَبَدًا: الْجِرْصُ وَالْحَسَدُ.

وكان يقول: يَسُودُ الرَّجُلُ بِعَقْلِهِ وَبِحَيَاتِهِ وَجَلْمِهِ.

وكان يقول: لَا تَأْتِ إِلَّا مَنْ تَأْمَلُ نَائِلَهُ، أَوْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ، أَوْ تَرْجُو بَرَكَتَ دُعَائِهِ، أَوْ تَقْتَبِسُ مِنْ عِلْمِهِ.

الفصل الثالث

فيما أورده من الحِكَمِ والمواعظ المختصرة

على جهة البلاغة والإيجاز

سمع الحسنُ رجلاً يقول: اللَّهُمَّ أَهْلِكَ الْفُجَّارَ، فقال: إِذَا تَسْتَوَحَّشُ الطَّرِيقَ، وَيَقِلُّ الْمُتَصَرِّفُونَ.

وكان يقول: إِنَّ هَذَا الدِّينَ قَوِيٌّ، وَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، فَلْيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ الْعَمَلِ فَوْقَ طَاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةَ وَالشَّرَّكَ.

وكان يقول: الْمَرَضُ زَكَاةُ الْبَدَنِ، كَمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ زَكَاةُ الْمَالِ، فَكُلُّ جَسَمٍ لَا يَشْتَكِي كَمَثَلٍ مَالٍ لَا يُرْكَبُ.

وكان يقول: أَفْضَلُ الْعَمَلِ الْفِكْرَةُ وَالْوَرَعُ، فَمَنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ كَذَلِكَ، نَجَا، وَإِلَّا، فَلْيَحْتَسِبْ حَيَاتَهُ.

وكان يقول: الْفِكْرَةُ مَرَأَةٌ تُرِيكَ حَسَنَتَكَ مِنْ سَيِّئَتِكَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا أَفْلَحَ، وَمَنْ أَغْفَلَهَا أَفْضَحَ.

وقال له رجلٌ يوماً: يَا أَبَا سَعِيدٍ! كُنْتَ حَدَّثْتَنِي بِحَدِيثٍ فَنَسِيتُهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: لَوْلَا النِّسْيَانُ، لَكُنْتُ الْفَقِهَاءَ.

(١) مسلم بن يسار أبو عبد الله البصري مولى بني أمية، وقيل: مولى بني تميم من موالى طليحة - رضي الله عنه -، وكانت وفاته سنة ثمة. وقيل: سنة إحدى وثمة. «سير أعلام النبلاء» (٤/٥١٠).

(٢) الثَّوَاءُ: طول المقام.

وقال أبان^(١): دخلت على الحسن المسجد، فقلت: هل صليت - رَحِمَكَ اللهُ؟ - فقال: لا! قلت: فإن أهل الشوفي قد صلّوا، فقال: ومن يأخذ عن أهل السوق دينه؟! إن نفقت سلعتهم أحرّوا الصلاة، وإن كسدت قدّموها.

وكان يقول: احذر ثلاثة لا تمكّن الشيطان فيها من نفسك: لا تخلون بامرأة ولو قلت: أعلمها القرآن، ولا تدخل على السلطان ولو قلت: أمره بالمعروف وأنهاه عن المنكر، ولا تجلس إلى صاحب بدعة؛ فإنه يمرض قلبك، ويفسد عليك دينك.

وكان يقول: تفقد الخلاوة في ثلاثة: في الصلاة، والقراءة، والذكر، فإن وجدت ذلك، فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق، فعالج فتحة.

وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب.

وكان يقول: أيها الناس! إننا والله ما خلقنا للفناء، ولكننا خلقنا للبقاء، وإنما ننقل من دار إلى دار.

نظم ذلك أبو العلاء المعري^(٢) فقال:

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَظَلَّتْ^(٣) أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمُ لِلنَّفَادِ

إنما يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِي إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادٍ
وكان يقول: من قرأ صاحب بدعة، فقد سعى في هدم الإسلام.
وكان يقول: روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إذا مدح الفاسق، غَضِبَ اللهُ تعالى»^(١).

وكان يقول: احذروا العابد الجاهل، والعالم الفاسق؛ فإن فيهما فتنة لكل مفتون.

وكان يقول: ابن آدم! لا يغرنك أن تقول: المرء مع من أحب؛ فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، وإن اليهود والنصارى ليحبون أنبياءهم، ولا والله ما يحشرون معهم، ولا يدخلون في زميرتهم، وإنهم لحصب جهنم هم لها واردون.

وكان يقول: لا تزال هذه الأمة بخير، ولا تزال في كنف الله وسننه، وتحت جناح ظله ما لم يرفق خيارهم بشرايرهم، ويعظم أبرارهم فجارهم، ويميل قراؤهم إلى أمرائهم، فإذا فعلوا ذلك، رفعت يد الله عنهم، وسلط عليهم الجبابرة فسأموهم سوء العذاب، ولعذاب الآخرة أشق وأبقى، وقذف في قلوبهم الرعب.

وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشي مشية المنكب، فقال:

(١) رواه الخطيب في «تاريخه» (٢٩٨/٧)، (٤٢٨/٨). من طريق سابق بن عبد الله عن أبي خلف خادم أنس بن مالك مرفوعاً: «إذا مدح الفاسق احتز العرش، وغضب له الرب تعالى».

وأبو خلف قيل: اسمه حازمة، كذبه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: منكر الحديث. انظر: «ميزان الاعتدال» (٥٢١/٤)، وقد أشار الألباني إلى تكرار الحديث. انظر: «السلسلة المضعفة» (و٥٩٥).

(١) هو أبان بن يزيد العطار الحافظ الإمام أبو زيد البصري، من كبار علماء الحديث، روى عن الحسن البصري. «سير أعلام النبلاء» (٤٣١/٧).

(٢) أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن عمرو بن سليمان القحطاني، ثم التنوخي، شاعر مشهور، لغوي، ولد سنة ثلاث وستين وثلاث مئة، وفقد بصره صغيراً، مات سنة تسع وأربعين وأربع مئة، وعاش ستاً وثمانين سنة.

(٣) هكذا في المخطوط. والصواب: «فُضِّلَتْ».

انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا والله تعالى فيه نعمة، وللشيطان لعنة.

وكان يقول: يحاسب الله سبحانه المؤمنين يوم القيامة بالمنة والفضل، ويُعَذِّبُ الكافرين بالحجة والعذل.

وكان يقول: يا عجباً لألينة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف.

وكان يقول: من دخل مداخل التهمة، لم يكن له أجر الغيبة.

ورأى شيخاً يعثب بالحصى ويقول: اللهم زوِّجني الحور العين! فقال: يسأل الحور العين، ويلعب كما يلعب المجانين.

وكان يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه؟ فليعرض عمله على القرآن، ليشير له الخسران من الرُجحان.

وكان يقول: رحم الله عبداً عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره، حمد الله، وسأله المزيد، وإن خالف، استعجب، ورجع من قريب.

وكان يقول: يا عجباً لابن آدم! حافظاه على رأسه، لسانه قلمهما، وريقه مداهما، وهو بين ذلك يتكلم بما لا يعنيه.

وكان يقول: ابن آدم! نحب أن تذكر حسناتك، وتكره أن تذكر سيئاتك، وتؤاخذ غيرك بالظن، وأنت مقيم على اليقين، مع علمك بأنك قد وكل بك ملكان يحفظان عليك قولك وعملك.

ابن آدم! إن اللبيب لا يمنعه جد الليل من جد النهار، ولا جد النهار من جد الليل، فدل لازم الخوف قلبه، إلى أن يرحمه ربه.

وكان يقول: إياكم والمدح؛ فإنه الذبح.

ولقد روي أن رجلاً مدح بحضرة النبي ﷺ، فقال عليه السلام:

«قَطَعْتُمْ ظَهْرَهُ، لَوْ سَمِعْتُمْ سِوَا الْفَلَحِ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(١).

وكان يقول: ما أنصف ربك عبداً اتهمه في نفسه، واستبطاه في رزقه.

وكان يقول: لا شيء أولى بأن تُقَيِّدَهُ من لسانك، ولا شيء أولى بالآئِثْلَهُ مِنْ هَوَاكَ.

وكان يقول: ما الذائبة الجموح بأخوج إلى اللجام الممسك من نفسك.

وكان يقول: ابن آدم! إنك لست بسابق أجلك، ولا بمغلوب على رزقك، ولا بمزروق ما ليس لك، فلم تكدح؟ وعلام تقتل نفسك؟

ولقي أعرابي الحسن، فقال: أصلحك الله! أعلمني ديناً مبسوطاً، لا ذاهباً شطوطاً، ولا هابطاً هبوطاً، فقال الحسن: يا بن أخي! لئن قلت ذلك، لقد أحسنت؛ إن خير الأمور لأوساؤها.

وكان يقول: من لم يجرب الأمور^(٢) خُدع، ومن صارع الحق صرع.

وكان يقول: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بليته نازلة، ونعمة زائلة، ومنيته قائلة.

وقال: ابن آدم غرض للبلايا، والرزايا، والمنايا. ثم ينتحب ويبكي ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَكَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَكَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣).

(١) رواه البخاري في «الأدب». باب: ما يكره من التمداح (٤٧٦/١٠)، ومسلم في «الزهد»، باب: النهي عن المدح... (٣٠١/٤) من طرق عن أبي موسى قال: سمع النبي ﷺ - رجلاً يثني على رجل ويُطْرِيه في المدح فقال: «أهلكتم - أو قُطِعْتُمْ - ظَهْرُ الرَّجُلِ!» واللفظ للبخاري.

(٢) ساقط من المخطوط، وقد أثبت ما في المطبوع لاستقامة الكلام به.

(٣) سورة البقرة: ٢٠١.

ولما بلغ الحسن مَضْرُوعَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - رضي الله عنهما - انتَحَبَ وناوَهُ، وقال: واحسرتاهُ ماذا لَقِيتَ هذه الأُمَّةُ، قَتَلَ ابْنُ دَعِيَّهَا ابْنَ نَبِيِّهَا! اللَّهُمَّ كُنْ لَهُ بِالْمَرْصَادِ ﴿وَسِعَ عِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١).

وكان يقول: ابن آدم! قَدِّمَ ما شِئْتَ من عملٍ صالحٍ أو غيره؛ فَإِنَّكَ قَادِمٌ عليه، وأَخَّرَ ما شِئْتَ أَنْ تُوَخَّرَ؛ فَإِنَّكَ راجِعٌ إليه.

وكان يقول: مَنْ أدركَ آخرَ الزمانِ، فَلْيَكُنْ جِلْساً من أخلاسٍ بَيْنَهُ (٢).

وكان يقول: ما لي أسمعُ حَسيساً، ولا أرى أنيساً؟!

وقيل: إنه خرجَ خارجيَّ بالجزيرة (٣)، فقال: بِرَأْيٍ مُنْكَرٍ فَأُنْكَرُهُ، وأرادَ تغييرَهُ، فوقعَ فيما هوَ أشَدُّ وأُنْكَرُ منه.

وكان يقول: مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ في المَلَأِ، فَقَدْ مَدَحَها، وَيُسَّ ما صَنَعَ.

وكان يقول: لولا البُدلاءُ، لَخَسِفَتِ الأرضُ، ولولا الصالحون، لَهَلَكَتِ الأُمَّةُ، ولولا العلماءُ لكانَ الناسُ كالبهائم، ولولا السلطانُ لأكلَ الناسُ بعضُهم بعضاً، ولولا الحَمَقِيُّ لَحَرِبَتِ الدنيا، ولولا الريحُ لَأَتَنَّ ما بينَ السماء والأرضِ.

وكان يقول: ثلاثة من قواصمِ الظُّهْرِ: إمامٌ تُطِيعُهُ فَيُضِلُّكَ، وجارٌ إن عَلِمَ خيراً سَتَرَهُ، وإن عَلِمَ شراً نَشَرَهُ، وفَقْرٌ ظاهِرٌ لا يَجِدُ صاحِبُهُ مُتَلَدِّداً.

وقال العلّاءُ بنُ زيادٍ: قلتُ للحسن: رجلانِ تَفَرَّغَ أحدهُما للعبادةِ، واشتغلَ الآخرُ بالسُّعْيِ على عِيالِهِ، أَيُّهُما أَفْضَلُ؟ فقال الحسنُ: ما اعتدلَ

الرجلانِ، الذي تَفَرَّغَ للعبادةِ أَفْضَلُ وأَحْسَنُ صُنْعاً.

وكان يقول: إذا رَأَيْتَ في وَلَدِكَ ما تُكْرَهُ، فَاسْتَغْنِبْ رَبَّكَ، وتُبَّ إليه؛ فإنما ذلك شيءٌ أَرَدْتَ بِهِ أنت.

قوله - رحمه الله -: فَاسْتَغْنِبْ رَبَّكَ؛ أَيُّ: راجِعُهُ وتُبَّ إليه، واستغفِرُهُ ذُنُوبَكَ.

وكان يقول: إذا أَظْهَرَ الناسُ العلمَ، وَضَيَّعُوا العملَ، وَتَحَابَّوا بالأنسِ، وَتَبَاغَضُوا بالقلوبِ، وَتَقاطَعُوا في الأرحامِ، لَعَنَهُمُ اللهُ - جلَّ ثَناءُهُ -، فَأَصَمَّهُمْ وأَعَمَّى أَبصارَهُمْ.

وسأله رجلٌ عن الغيبة (١) ما هي، وما يُوجِبُها؟ فقال: هي - والله - عقوبةُ اللهِ - عزَّ وجلَّ - يُحِلُّها بالعباد إذا عَصَوْهُ، وتأخَّروا عن طاعَتِهِ.

وقيلَ له: يا أبا سعيد! من أينَ أُنَبِّئُ على الخَلْيِ؟

قال: مِنْ قِلَّةِ الرِّضَا عن اللهِ - عزَّ وجلَّ -.

ف قيلَ له: فمن أينَ دخلَ عليهم قِلَّةُ الرِّضَا عن اللهِ - عزَّ وجلَّ -؟

فقال: مِنْ جَهْلِهِمْ باللهِ، وَقِلَّةِ المَعْرِفَةِ بِهِ.

وكان يقول: هُجْرانُ الأَحْمَقِ قُرْبَةٌ إلى اللهِ، ومواصلَةُ العاقلِ إقامةٌ لِلدينِ اللهِ، وإكرامُ المؤمنِ خِدْمَةُ اللهِ، ومُصارمةُ الفاسِقِ عَوْنٌ مِنَ اللهِ.

وكان يقول: لا تُكُنْ شاةً الراعي أَعْقَلَ منك؛ تَرْجُرُها الصَّيْحَةُ، وتَطْرُدُها الإِشارةُ.

وكان يقول: سمعتُ بكراً بنَ عبدِ اللهِ المُزَنِّيَّ يقول: اجْتَهِدُوا في

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) أي: لا يبرح مكانه. والجلس: كساءٌ يسطُّ تحت حُرِّ النِّيابِ «مختار الصحاح».

(٣) هكذا في المخطوط. وفي المطبوع: (بالبحيرة).

(١) هكذا في الأصل: (الغيبة)، ولعل الصواب: (الفتنة) والله أعلم.

العمل، فَإِنْ قَصَرَ بَكُمْ ضَعُفٌ، فَكُفُّوا عَنِ الْمَعَاصِي.

وكان يقول: رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَمْ يُؤْتِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا خَيْراً مِنَ الْبَقِيْنِ وَالْعَافِيَةِ، فَاسْأَلُوهُمَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(١)، ثم يقولُ الحسن: صدق رسول الله ﷺ. بِالْبَقِيْنِ طُلِبَتِ الْجَنَّةُ، وَبِالْبَقِيْنِ هُرِبَ مِنَ النَّارِ، وَبِالْبَقِيْنِ صُبِرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَبِالْبَقِيْنِ أُدْبِتِ الْفَرَائِضُ، وَفِي الْمَعَافَاةِ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وكان يقول: الْمُؤْمِنُ لَا يَلْهُو حَتَّى يَغْفَلَ، فَإِذَا تَفَكَّرَ حَزَنَ.

وكان يقول: مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ تَزِدْهُ صَلَاتُهُ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَّا بُعْدًا، وَلَمْ تَزِدْهُ عِنْدَهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إِلَّا مَقْتًا.

وكان يقول: الْمُرَاعِي لِعَمَلِهِ كَالْمُدَافِعِ فِي الْحَرْبِ عَنِ نَفْسِهِ، بَلْ مُرَاعَاةُ الْعَمَلِ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! تَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ، وَتَأْتِي الْجَرَائِمَ، وَتَرْكِبُ الْعِظَائِمَ، وَتَمْنَى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي! سَتَعْلَمُ - أَيُّ فَاجِرٍ - حِينَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وكان يقول: تَرَكُ الْخَطِيئَةَ أَهْوَنُ مِنْ مُعَالَجَةِ الثَّوْبَةِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ^(٢)، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ الْحَسَنَ، صَدَقَ - وَاللَّهِ - لَوْ وَافَقَ قَلْبًا

لِلطَّاعَةِ فَارْعَا، وَعَقْلًا مِنْ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ سَالِمًا.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! مَا لَكَ وَلِلشَّرِّ، وَهَذَا الْخَيْرُ صَافٍ؟! ابْنَ آدَمَ! اتَّقِ الْكِبَائِرَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا لَمْ تُصِبْ كَبِيرَةً تُغَيِّرُ عَلَيْكَ قَلْبَكَ، وَتُهْدِمُ صَالِحَ عَمَلِكَ.

وكان يقول: اللَّهُ دَرُّ أَهْلِ الْحَقِّ، كَانَتْ دِرَّةٌ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَهْيَبَ مِنْ أَسِيفِ الْحِجَاجِ.

«وقيل: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ صُرَاخًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: رَجُلٌ سَنَّ سُنَّةَ ضَلَالَةٍ، فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا، وَرَجُلٌ بَسِيَ الْمَلَكَ، وَرَجُلٌ رُزِقَ نِعْمَةً، فَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -».

وكان يقول: الْمُؤْمِنُ يَلْقَاهُ الزَّمَانُ بَعْدَ الزَّمَانِ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ، وَوَجْهٍ وَاحِدٍ، وَنُصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا يَتَبَدَّلُ الْمَنَافِقُ؛ لَيْسْتَ أَكِلَ كُلِّ قَوْمٍ، وَيَسْعَى بِكُلِّ رِيحٍ.

وكان يقول: الْمُؤْمِنُ صَدَقَ قَوْلُهُ فِعْلُهُ، وَسِرُّهُ عِلَانِيَتُهُ، وَمَشْهُدُهُ مَغِيْبُهُ. وَالْمَنَافِقُ كَذَبَ قَوْلُهُ فِعْلُهُ، وَسِرُّهُ عِلَانِيَتُهُ، وَمَشْهُدُهُ مَغِيْبُهُ.

وقال له رجل: أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ فَقَالَ: لَا أَبَا لَكَ! مَنْ أَنْسَاكَ إِخْوَةَ يُوسُفَ، وَمَا فَعَلَ بِهِمُ الْحَسَدُ؟

وكان يقول: ثَلَاثَةٌ لَا غِيْبَةَ فِيهِمْ: الْفَاسِقُ الْمُغْلِبُ بِنَفْسِهِ؛ أَنْ يُذَكَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ؛ أَنْ يُذَكَّرَ بِبِدْعَتِهِ، وَالْإِمَامُ الْجَائِرُ؛ أَنْ يُذَكَّرَ بِجَوْرِهِ. قَالَ حُمَيْدُ خَادِمُ الْحَسَنِ: قُلْتُ لَهُ يَوْمًا: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَصْلَحَكَ اللَّهُ - أَمَا تَرَى مَا النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْاِخْتِلَاطِ؟

(١) رواه الترمذي في الدعوات: برقم (٣٥٥٨)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأحمد (٣/١، ٤، ٨، ١١) بالفاظ مختلفة. كلاهما عن أبي بكر - رضي الله عنه -.

(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله البصري: أحد الأعلام، توفي سنة ثلاث وعشرين ومئة، وقيل غير ذلك. «سير أعلام النبلاء» (١١٩/٦).

قال: يا أبا الخير! أصلح أمر الناس أربعة، وأفسدهم اثنان، فأما الذين أصلحوا أمر الناس، فعمرو بن الخطاب - رضي الله عنه - يوم السقيفة، حين قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقام عمر فقال: ألسنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «الأيمة من قريش»؟ قالوا: بلى! قال: أولسنتم تعلمون أنه قدّم في الصلاة أبا بكر؟ قالوا: بلى، قال: فأئنكم يتقدّم على أبي بكر؟ قالوا: لا أحد، فسلمت الأنصار، ولولا فعله عمر لتنازع الناس الخلافة، وادّعتها كل طائفة إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حين شاور الناس في شأن أهل الردّة، فكلّهم أشار عليه بأن يقبل منهم ما أطاعوا به من الصلاة، ويدع لهم الزكاة، فقال - رضي الله عنه -: والله لو منعوني عقلاً كانوا يُعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه، ولولا الذي فعله أبو بكر - رضي الله عنه - لألحد الناس في الزكاة إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله عثمان - رضي الله عنه - حين جمع الناس على مصحف، جمع القرآن فيه، وكانوا يقرؤونه على حروف، فيقول قوم: قراءتنا أفضل من قراءتكم، حتى كاد بعضهم يُكفّر بغضاً، ولولا الذي فعله عثمان - رضي الله عنه - لألحد الناس في القرآن إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله عليّ - رضي الله عنه - حين قاتل أهل البصرة، فلمّا فرغ القتال، قسّم بين أصحابه ما حوى العسكر من أموالهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! هلاًّ تقسّم علينا أبناءهم ونسأولهم؟ فأنكر عليهم ما طلبوه من ذلك، وقال: فمن يأخذ أم المؤمنين في سهمي؟ إنكاراً لما ذهبوا إليه، وطلبوه به.

ثم قال: أرايتم هؤلاء يكن [الموالي هل] (١) أبناءهم ورجالهم، أتلموهم العدة، فيرتن الرّبع، والثّلت، والسّدس؟ فقالوا: نعم! لو كنّ إماء، لما كان لهنّ ميراث، ولا عليهنّ عدة، فعلموا صواب ما ذهب إليه، وسلموا لأمره، ورَضُوا بحكمه، ولولا ما فعله عليّ - رضوان الله عليه - ما علم الناس كيف تكون مقاتلة أهل القبلة.

وأما الأميران اللذان أفسدا أمر الناس:

فما فعله عمرو بن العاص، من رفع المصاحف، وقوله ما قال حتى حكمت الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، وقد كان عليّ - رضي الله عنه - فيهم ما أراد عمرو، وقال: كلمة حتى أريد بها باطل.

والأمر الثاني: ما فعله المغيرة بن شعبه، حين كتب إليه معاوية - رحمه الله -: اقدم إليّ مغيرة! لأعلمك، فتأخّر عنه أياماً، ثم ورد عليه، فقال معاوية: ما أبطأ بك؟ قال المغيرة: أمرُ بدأته كرهت أن آتي قبل إحكامه، قال: ماهو؟ قال: أخذت البيعة ليزيد على أهل الكوفة، قال: أو فعلت ذلك؟ قال: بلى! قال: فارجع إلى عمّلك وتمّم ما بدأته، فلما خرج، قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت - والله - رجلاً معاوية مؤزّي، لا تزال فيه إلى يوم القيامة.

قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، وصارت الخلافة توارث، ولولا ذلك لكانت شوري، لا يليها إلا من اتفق على فضله، استحقاقه الإمامة إلى يوم القيامة.

وكان يقول: روي أن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان، لا تنال

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب [الراعي قتل] والله أعلم.

المعيشة فيه إلا بركوب المعصية، فإذا كان ذلك الزمان قُبِحَ التزويجُ،
وَحَلَّتِ العُزْبَةُ».

وكان يقول: لقد مضى بين أيديكم أقوامٌ، لو أنفقَ أحدُهم عددَ
الحصى، لَخَشِيَ ألا يُقبلَ منه، ولا ينجو؛ لِعَظَمِ الأمرِ في نفسه.

وسُئِلَ عَنْ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - فقال: كان - والله - سَهْمًا صَائِبًا من
مَرَامِي الله تعالى، وكان رَبَّانِيَّ هذه الأمة، في ذُرْوَةِ فَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، كان ذا
قَرَابَةٍ قَرِيبَةٍ من رسولِ الله ﷺ؛ أبا الحَسَنِ والحُسَيْنِ - رضي الله عنهما -
وزوجَ فاطمةَ الزهراء، لم يَكُنْ بالسَّروِقَةِ لِمَالِ الله، ولا بالبرومة^(١) في
أمر الله، ولا بالملولة^(٢) في حقِّ الله، أعطى القرآنَ عزائمه، وعَلِمَ ما لَهُ فيه
وما عليه - رضي الله تعالى عنه -.

الفصل الرابع

في ذم الدنيا ونهيهِ عن التعلق بها

قال هشامُ بْنُ حَسَّانَ: سمعتُ الحسنَ يقول: والله ما أحدٌ من الناس
بُسِطَ لَهُ في أمرٍ من أمورِ دنياه، فلم يَخَفْ أن يكونَ ذلكَ مَكْرًا به،
واستِذْراجًا له، إلا نَقَصَ ذلكَ من عَمَلِهِ، ودينِهِ، وعقلِهِ، ولا أَحَدٌ
أَمْسَكَ اللهُ الدنيا عنه، ولم يَرِ أن ذلكَ خيرٌ له، إلا نَقَصَ ذلكَ من عَمَلِهِ،
وبأن العجزُ في رأيه.

وكان يقول: ما من مسلمٍ رُزِقَ يوماً بيومٍ، فلم يَعْلَمْ أن ذلكَ خيرٌ له،
إلا كان عاجزُ الرأي.

وكان يقول: إن الله - عزَّ وجلَّ - لَيُعْطِي العبدَ من الدنيا؛ مَكْرًا به،
ويمنعُه؛ نَظْرًا لَهُ.

وكان يقول: أدركتُ أقواماً كانتِ الدنيا أهونَ عندهم من الثرابِ الذي
تمشونَ عليه.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ أقواماً كانتِ الدنيا عندهم وَدِيعَةً، حتى رَدُّوها
إلى مَنْ اتَّصَفَتْ بِهَا، ثم راحوا خِفافاً غَيْرَ مُثْقَلِينَ، ولقد أدركتُ أقواماً
كانتِ الدنيا تَعْرِضُ لأَحَدِهِمْ، وإنه لَمَجْهُودٌ، فتركها مخافةَ الساعةِ.

(١) والبُرْمَةُ: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، والجمع أبرام. انظر: «لسان العرب»
(١٢/٤٣).

(٢) صبغة مبالغة من الملل، بمعنى: السأم.

وكان يقول: والله ما بلغت الدنيا ولا انتهت قدرها إلى أن يُضيق الرجل فيها حَسْبُهُ ودينُهُ.

وكان يقول: والله ما عَجِبْتُ من شيءٍ كَعَجَبِي من رجلٍ لا يَحْسَبُ حُبَّ الدُّنْيَا من الكِبَائِرِ؛ وإيمُ الله! إِنَّ حُبَّهَا لَمِنْ أَكْبَرِ الكِبَائِرِ، وهل تشعَّبَت الكِبَائِرُ إِلَّا من أَجْلِهَا؟ وهل عُبِدَتِ الأصْنَامُ، وَعَصِيَ الرَّحْمَنُ، إِلَّا لِحُبِّ الدُّنْيَا؟ فالعارفُ لا يَجْزَعُ مِنْ دُكْهَا، ولا يَنَافِسُ بِقُرْبِهَا، ولا يَأْسَى لِبُعْدِهَا.

وكان يقول: يُخَشِّرُ النَّاسُ عُرَاةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا خَلَا أَهْلَ الزَّهَادَةِ فِي الدُّنْيَا.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! وَاللهِ مَا أَعَزَّ هَذَا الدَّرْهَمَ أَحَدٌ إِلَّا أَذَلَّهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ إِبْلِيسَ، لَمَّا ضُرِبَ الدِّينَارُ والدَّرْهَمُ، أَعَزَّهُمَا، وجعلَهُمَا على رَأْسِهِ، وقال: مَنْ أَحَبَّكُمَا، فهو عَبْدِي حَقًّا، أَصْرَفَهُ كَيْفَ أَشَاءُ.

وقال: إِذَا أَحَبَّ بَنُو آدَمَ الدُّنْيَا، فَمَا أَبَالِي أَلَّا يَعْبُدُوا صَنَمًا، وَلَا يَتَّخِذُوا إِلَهًا غَيْرَ اللهِ رَبًّا، حُبُّهُمْ الدُّنْيَا يُورِثُهُمُ الْمَهَالِكُ.

وكان يقول: رَأَيْنَا مَنْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَمَا رَأَيْنَا مَنْ أُعْطِيَ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا.

وكان يقول: الْمُؤْمِنُ لَا يَصْفُو لَهُ فِي الدُّنْيَا عَيْشٌ.

وكان يقول: لَقَدْ رَوَى عَنِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: الدُّنْيَا لِإِبْلِيسَ مَرْزَعَةٌ، وَالنَّاسُ لَهُ حَرَاثُونَ.

وكان يقول: مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ، أَحَبَّهُ، وَأَثَرَ مَا عِنْدَهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا وَغُرُورَهَا، زَهَدَ فِيهَا.

وقبل له: يَا أَبَا سَعِيدٍ! هَلْ نَرَى اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي دَارِ الدُّنْيَا؟ فقال: لَا، قِيلَ: فَهَلْ نَرَاهُ فِي دَارِ الْآخِرَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ، وَفَانِ كُلُّ مَا فِيهَا، وَإِنَّ الْآخِرَةَ بَاقِيَةٌ، وَبَاقِ كُلِّ مَا فِيهَا، وَمُحَالٌّ أَنْ يُرَى الْبَاقِي بِالْفَانِي، وَالْقَدِيمُ الْأَزَلِيُّ بِالْمُحَدَّثِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، خَلَقَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِعِبَادِهِ أَبْصَارًا بَاقِيَةً، يَرَوْنَ بِهَا رَبَّهُمْ؛ تَفَضُّلاً عَلَيْهِمْ، وَإِكْرَاماً لَهُمْ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ رَاقِدٌ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِالشَّرِيطِ، وَفَدَا أَثَرُ فِي جَنْبِهِ أَثَرُ الْحَبْلِ، فَدِمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «مَا لَكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ؟» فَقَالَ: ذَكَرْتُ كَيْسَرِي وَقَيْصَرَ، وَمَا هُمَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالنَّعَمِ؛ وَرَأَيْتُكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَصَفِيُّهُ، وَمُصْطَفَاهُ، وَحَبِيبُهُ، تَنَامُ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِالشَّرِيطِ! فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ يَكُونَ لِهُمَا الدُّنْيَا، وَلَنَا الْآخِرَةُ؟» فَقَالَ: رَضِيتُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «فَاعْلَمْ يَا عُمَرُ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ»، وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «إِنَّمَا مَتَلِي وَمَتَلِ الدُّنْيَا كَرَاجٍ سَافِرٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَرَفِيعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ ذَاتُ ظِلٍّ ظَلِيلٍ، فَقَالَ تَحْتَهَا، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١).

قَالَ الْحَسَنُ: وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَلْعَقُ أَصَابِعَهُ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَقُولُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -:

(١) رواه البخاري مطولاً بمثله، في المظالم، باب: العُرْفَةُ وَالْحُلْيَةُ الْمَشْرُوقَةُ (١١٤/٥)، وفي النكاح، باب: موعظة الرجل أبته لحال زوجها (٢٧٨/٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل أصحاب الشجرة (٢٤٩٨/٤)، ورواه الترمذي في الزهد مختصراً، باب (٤٤)، (رقم ٢٣٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»^(١).

وكان يقول: لقد كانت فاكهة أصحاب رسول الله ﷺ التي يَسْتَظِرُّ قوتها حُبْرُ الْبُرِّ، فما بالكُم عباد الله تَسْتَفْرِهُونَ الْمَرَائِبَ، وَتَسْتَلِيثُونَ الْمَلَابِسَ، وَتُلَوِّنُونَ الْأَطْبَحَةَ؟ ثم يقول: وَنَحْكُمُ! أما تَسْتَحُونَ من طول ما لا تَسْتَحْيُونَ؟ ألا تكونون كما كان سلفكُم الصالح؟

وكان يقول: مَنْ نَافَسَكَ فِي دِينِكَ، فَنَافِسْهُ، وَمَنْ نَافَسَكَ فِي دُنْيَاكَ، فَالْقِيهَا فِي نَحْوِهِ.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا، وَصَحِبْتُ طَوَائِفَ، مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا أَقْبَلَ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا أَذْبَرَ، وَلَهُيْ عِنْدَهُمْ أَهْوَى مِنَ التُّرَابِ الَّذِي تَطْوُونَهُ بِأَرْجُلِكُم.

كان أحدُهُمْ يعيش دَهْرَهُ لَمْ يُجِدْ لَهُ ثَوْبٌ، وَلَا نُصِبَ لَهُ قَدْرٌ عَلَى نَارٍ، وَلَا يُجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ سِتْرٌ، كَانُوا يَخَافُونَ يَوْمًا تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، وَتَعْمَى الْقُلُوبُ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَعَلَّقُهَا شَرٌّ تَعَلَّقَ، اقْطَعْ عَنْكَ حَبَائِلَهَا، وَأَغْلِقْ دُونَكَ أَبْوَابَهَا.

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١١) من حديث عطاء بن أبي رباح، مرسلاً صحيحاً، ورواه البخاري في «شرح السنة» (٢٨٧/١١) من حديث عائشة، وفي سننه عبيد الله بن الوليد الوصافي، وهو ضعيف، ورواه ابن سعد (٢٨١/١) من طريق أبي معشر، عن سعيد المقبري، عنها، مرفوعاً، وفيه نجيب أبو معشر، وهو ضعيف، وأورده الهيثمي (١٩/٩٨) من حديث عائشة، وقال: رواه أبو يعلى، وإسناده حسن، وقد أورده الألباني في «الصحيح» برقم (٥٤٤)، وانظر: «صحيح الجامع» (٨٠٧).

وَلِيَكُنْ حَسْبُكَ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُ - مِنْهَا مَا يُبَلِّغُكَ الْمَحَلَّ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَطْلُعَ أَتْلُكَ تُبَاهِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَالِكَ وَوَلَدِكَ، هَيْهَاتَ أَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ، ذَلِكَ يَوْمٌ تَذْهَبُ الدُّنْيَا فِيهِ بِحَالِهَا، وَتَبْقَى الْأَعْمَالُ قَلَانِدَ فِي أَعْنَاقِ عُمَّالِهَا.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا صَفْوَ الدُّنْيَا، وَدَعُوا كَدَرَهَا؛ فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَرًا، وَلَا الْكَدَرُ مَا عَادَ صَفْوًا. دَعُوا مَا يَرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكُمْ؛ تَرْتَحِي السَّلَامَةَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ لَكُمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا قِيَمًا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنْهَا.

وكان يقول: مَا أُعْطِيَ رَجُلٌ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا قِيلَ لَهُ: اخْذْهُ وَمِثْلُهُ مِنْ الْخِرَاصِ.

وكان يقول: مَنْ حَمَدَ الدُّنْيَا، ذَمَّ الْآخِرَةَ، وَلَيْسَ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ إِلَّا مُقِيمٌ عَلَى سَخِطِهِ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا إِلَّا اخْتِيَارًا، وَلَا زَوَاها مُدَّ خَلْقَهَا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا اخْتِبَارًا.

قال الحسن بن جعفر: سمعتُ مالك بن دينار يقول: الدينارُ والدرهمُ أَهْوَى مِنَ النَّوَى، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ، فَقَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مَالِكًا، هُمَا أَهْوَى عَلَيَّ مِنَ الْحَصْبَاءِ، النَّوَى تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ، وَالْدَّرَاهِمُ تَقْتُلُ مَنْ كَسَبَهَا مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا، وَتَهْوِي بِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَيُشْنُ الْمَصِيرُ.

وكان يقول: إِنَّ مِمَّا يُزْهَدُ ذَا الْهِمَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَيُزْهَدُ تَرْكِهَا، وَيُوجِبُ عَلَيْهِ إِلَّا يَحْرِصَ عَلَيْهَا: عِلْمُهُ بِأَنَّ الْأَرْزَاقَ لَمْ تُقَسِّمْ فِيهَا عَلَى قَدْرِ الْأَخْطَارِ.

وكان يقول: صحبتُ أقواماً كانَ أحدهم يأكلُ على الأرض، وينامُ عليها، منهم صفوان بن مُحَرِّزٍ، كانَ قد عَوَّدَ نفسه أَكْلَ رَغِيفٍ، وكان يقول: إذا أتيتُ إلى أهلي، وأصببتُ رَغِيفاً، فجزى اللهُ الدنيا عن طُلَّابِها والراغبين فيها شِراً، وكان آخرُ يقول: إذا أَكَلْتُ من طعامِكُم رَغِيفاً، وشربتُ كوزَ ماءٍ، فعلى دُنْيَاكُم العَقَاءُ.

وكان الحسنُ يقول: أَمِينُوا الدنيا، فَأَكْرَمُ ما تكونُ حينَ تُهَانُ.

ولقد رُوِيَ: إذا كانتِ الدنيا في القلبِ، نَفَرَتْ عنها الآخرةُ؛ لأنها عزيزةٌ كريمةٌ.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! إنْ لَكَ عاجلةً وأجلَّةً، فلا تُؤَيِّرَنَّ عاجِلَتَكَ على أَجَلَتِكَ فتندمَ، واعلمْ أنكَ إنْ تَبِعَ دُنْيَاكَ بآخرَتِكَ تَرَبَّحَهُمَا، وإنْ تَبِعَ آخرَتَكَ بدُنْيَاكَ تَخَسَّرَهُمَا.

ابنَ آدمَ! إنه لا يَصُرُّكَ ما رُوِيَ عَنْكَ من دُنْيَاكَ إذا اذْخَرَ لَكَ خَيْرُ آخرَتِكَ، وما يَنْفَعُكَ خَيْرٌ ما أَصَبْتَ منها إذا حُرِمْتَ خَيْرَ آخرَتِكَ.

ابنَ آدمَ! إِنَّ الدنيا مَطِيَّةٌ، إِنَّ رَكِبَتِهَا حَمَلَتَكَ، وَإِنْ حَمَلَتْهَا أَثْقَلَتْكَ.

ابنَ آدمَ! إِنَّكَ مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِكَ، وَاوَدَّ عَلَيْكَ أَجَلُكَ، مَعْرُوضٌ عَلَى رَبِّكَ، فَخُذْهُمَا فِي يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ؛ فَعِنْدَ المَوْتِ يَأْتِيكَ الخَيْرُ اليَقِينُ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(١).

وكان يقول: اللهُ دُرُّ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حِينَ قَالَ: الدنيا ما مَضَى منها فَحُلُمٌ، وما بَقِيَ منها فَأَمَانِي وَإِثْمٌ.

وكان الحسنُ يقول: إِنْ كَانَ بَغْيُكَ مِنَ الدُّنْيَا ما يَكْفِيكَ، فَأَذْنِي ما فِيهَا يَكْفِيكَ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي تَعْمَلُ مِنْهَا ما يَكْفِيكَ، فَلَيْسَ شَيْءٌ يَكْفِيكَ.

وكان يقول: إِنْ هَذَا المَوْتُ فَصَحَّ الدُّنْيَا، فَلِمَ يَتْرُكُ لِأَحَدٍ بِهَا فَرَسَاحاً.

وكان يقول: لَيْتَنِي كَانَتِ الدُّنْيَا مُلِيتُ باللذاتِ، فَلَقَدْ حُسِيتُ بِالآفَاتِ، وَوَجِبَتْ مِنْ أَجْلِهَا التَّبَاعَاتُ.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَ دُنْيَا، لَهَا تَرْضَى، وَمِنْ أَجْلِهَا تَغْضَبُ، وَعَلَيْهَا تُقَاتِلُ، وَفِيهَا تَعْبُ وَتَنْصَبُ، ارفُضْهَا إِلَى النَّارِ إِنْ كُنْتَ طَالِبَ الْجَنَّةِ، أَوْ فَدِّعِ التَّمَنِّيَ يَا لُكْعُ؛ فَإِنَّ حَكِيمًا يَقُولُ:

وإِنَّ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمْسِكٍ مِنْهَا بِخَبَلٍ غُرُورٍ

ابنَ آدمَ! الشَّوَاءُ هَاهُنَا قَلِيلٌ، والعَذَابُ هُنَاكَ كَثِيرٌ طَوِيلٌ، لقد رُوِيَ عن

بعضِ الزَّاهِدِينَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الدُّنْيَا وَالْآلَةُ لِلْمَوْتِ، نَافِضَةٌ لِلْمُبَرِّمِ، مُرْتَجِعَةٌ لِلْمَطِيَّةِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا يَجْرِي إِلَى ما لَا يَدْرِي، وَكُلُّ مُسْتَقَرٍّ فِيهَا غَيْرُ رَاضٍ بِهَا، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارٍ قَرَارٍ.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ؛ فَإِنَّهُ مُهْلِكٌ، يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى

رِزْقِ اللَّهِ فَيَنْفَقُهُ فِي البِنَاءِ وَالتَّبْذِيرِ، وَالسَّرَفِ وَالمَخِيلَةِ، وَفِي زِينَةِ الحَيَاةِ

الدُّنْيَا، وَلَعَلَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَنْفَقَ مِثْلَ دِينِهِ فِي بُلُوغِ هَوَاهُ، وَلَا يَتَصَدَّقَ بِدَرَاهِمٍ

وَاحِدٍ طُغْيَانًا فِي رِزْقِ اللَّهِ، وَهَرَبًا عَنْ حَقِّ اللَّهِ، سَتَعْلَمُ يَا لُكْعُ!.

وكان يقول: إِنْ المُرْمَنَ كَيْسٌ، نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، ثُمَّ عَمِدَ

إِلَى دُنْيَاهُ فَهَدَمَهَا، وَبَنَى آخرَتَهُ، وَلَمْ يَهْدِمِ آخرَتَهُ لِبِنَاءِ دُنْيَا، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ

عَمَلَهُ حَتَّى لَمِيَ رَبُّهُ فَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَإِنَّ المَنَافِقَ عَمِدَ فَنَافَسَ عَنْ

دُنْيَا، وَعَمِيَ عَنْ آخرَتِهِ، اتَّخَذَ الدُّنْيَا إِلَهًا، وَنَحَهُ! أَلَا خُلِقَ؟ أَمْ بِالْجَمْعِ

لَهَا أَمْرٌ، سَيَعْلَمُ الْمَغْرُورُ يَوْمَ ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُوتَ يَسْمَعُهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ (١).

ابن آدم! لا غناء بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فعلبك به؛ فإنه سيأتي بك إلى نصيبك من الدنيا، فينظمه لك نعلماً يزول معك حيث تزول.

وكان يقول: ابن آدم! وُصِفَتْ لك الدنيا، وغابَتْ عنك أمور الآخرة، وقُرِبَتْ منك الأجَلُ، وأُمِرْتَ بالعمل، وحقَّ الله الرِّزْمُ لك، فاعملْ لِمَعَادِكَ، فلنْ يَرْضَى ربُّكَ منك إلا بأداء ما فُرضَ عليك.

ابن آدم! إذا رأيتَ الناسَ في خيرٍ، فَنَافِسْهُمْ، وإذا رأيتَهُمْ في هَلَكَةٍ مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا، فَذَرَّهُمْ وما اختاروا لأنفُسِهِمْ، ولقد رأيتُ أقواماً آثروا عاجِلَتَهُمْ على آجَلَتِهِمْ، ودُنْيَاهُمْ على آخِرَتِهِمْ، فافْتَضَحُوا، وَذَلُّوا، وَهَلَكُوا، وَغَوِقُوا بِمَوْتِ الْقُلُوبِ.

وكان يقول: عقوبة العلماء موت قلوبهم؛ لطلبهم الدنيا بعمل الآخرة. وكان يقول: أيُّها المغرورون! إنَّما الدنيا جِيفَةٌ يَنْهَشُهَا عَشَّاقُهَا، فَهِيَ تَقْتُلُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَهَمٌّ لَا يَشْعُرُونَ، مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا، ذَلٌّ وَاقْتَصَرٌ، وَمَنْ زَهَدَ فِيهَا، عَزٌّ وَاقْتَدَرٌ.

وقيل: مرَّ الحسنُ برجلٍ وهو يُشْدُّ:

فإِذَا لَيْسَ بِي قُبْحٌ وَلَكِنْ عَسَى يَغْتَرُّ بِي حَوْثٌ لَيْتِمُ
فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! وإيمُ الله! لو كان للدنيا شِعْرٌ، لَكَانَ هَذَا.

ويقال: إِنَّ مِنْ شِعْرِهِ - رَحْمَةُ اللهِ - فِي صِفَةِ الدُّنْيَا:

أَسْلَامٌ نَوْمٌ أَوْ كَفَلٌ زَانِلٌ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
وكان يقول: ابن آدم! سَوَاطِ سَوَاطٍ، جَمْعاً جَمْعاً فِي وَعَاءٍ، وَبُذْأ فِي وَكَاءٍ، تَرَكَّبُ الذَّلُولُ، وَتَلَبَّسُ اللَّيْنُ، كَأَنَّ قَدْ قِيلَ: مَاتَ وَأَقْضَى - وَاللهُ - إِلَى الْآخِرَةِ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَمَلٌ أَيَّاماً يَسِيرَةً، فَوَاللهِ مَا نَدَمَ أَنْ قَدْ أَصَابَ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَرَخَائِهَا، مَعَ اسْتِهَانَتِهِ بِهَا، وَهَضْمِهِ لَهَا، وَتَرْوُدِهِ لآخِرَتِهِ مِنْهَا، لَمْ تَكُنِ الدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارٍ، وَلَا رَغَبٌ فِي نَعِيمِهَا، وَلَا فَرَحٌ بِرَخَائِهَا، وَلَا تَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ بَلَائِهَا، مَعَ احْتِسَابِهِ الْأَجَرَ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، مَضَى رَاغِباً رَاهِباً، فَلَمْ يَلْتَمَسْ ثَوَابَ الدُّنْيَا، وَلَا عَرَّجَ عَلَى نَعِيمِهَا، فَهَنِيئاً لَهُ، أَمَّنَ اللهُ بِذَلِكَ رَوْعَتَهُ، وَيَسَّرَ حِسَابَهُ، وَأَمَنَهُ عِقَابَهُ.

وكان يقول: إِنَّمَا الْغُدُوُّ وَالرَّوَاحُ وَحْطٌ مِنَ الدَّلْجَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ لَا يُلَبِّثُكَ أَنْ تَقْدَمَ عَلَى اللهِ وَهُوَ رَاضٍ عَنْكَ، فَيُدْخِلَكَ الْجَنَّةَ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ.

وكان يقول: أيُّها الناس! إنَّ اللهَ لَا يُخْدَعُ عَنْ حَقِّهِ، وَلَا يُعْطِيهَا أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ بِالْأَمَانِي.

وكان يقول: أيُّها الناس! عَلَيْكُمْ بِالزَّهَادَةِ فِي الدُّنْيَا؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَقُولُ: إِدَامِي الْجُوعُ، وَشِعَارِي الْخَوْفُ، وَلِيَّاسِي الصَّوْفُ، وَاضْطِلَّائِي فِي الشِّتَاءِ الشَّمْسُ، وَسِرَاجِي الْقَمَرُ، وَرَاحِلَتِي رِجَالِي، وَفَاكِهَتِي مَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ، وَيَعْلَمُ اللهُ أَنِّي أَبِيتُ وَلَا شَيْءَ لِي، وَأَصْبَحُ وَلَا شَيْءَ لِي، وَأَحْسَبُ أَنَّ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ أَغْنَى مِنِّي.

وكان الحسن يقول: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ:
وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِنْ طَعَامٍ، وَإِنَّهُمْ
لَيَسْعَةُ آيَاتٍ^(١).

قال الحسن: أما والله ما قالها ﷺ استبطاءً لِرِزْقِ رَبِّهِ، وَلَا طَلَباً لِمَا لَمْ
يُعْطِهِ، وَلَكِنْ لِيَتَنَاسَى بِهِ أَهْلُهُ، وَتَعْلَمَ أَنَّ لَا قَدْرَ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ.

وكان يقول: لقد عُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَفَاتِيحُ الدُّنْيَا، وَخَزَائِنُ
الْأَرْضِ، وَلَا يَنْقُصُهُ اللَّهُ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَكَرِهَ أَنْ يُخَالِفَ
رَبَّهُ، وَأَنْ يُحِبَّ مَا أُبْغِضَهُ، أَوْ يَرْفَعَ مَا وَضَعَهُ، وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ
يَقُولُ: «مَنْ زَهَّدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ»^(٢).

وكان الحسن يقول: رُوِيَ أَنَّهُ يُؤْتَى بِالدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ كُلِّ زِينَةٍ كَانَتْ
فِيهَا مِثْلُ خَلْقِهَا اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَتَصَرَّمُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ!
اجْعَلْنِي لِأَحَدٍ أَوْلِيَاكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: اسْكُنِي، فَمَا خَلَقْتُ خَلْقاً هُوَ
أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكَ، وَمِمَّنْ أَتَوَكَّلُ وَاخْتَارَكَ عَلَى مَا عِنْدِي.

وكان الحسن يقول: الْمُؤْمِنُ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا، يَسْعَى فِي فَكَاكِ رَقِيَّتِهِ،
لَا يَأْمَنُ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ.

وقال له رجل يوماً: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَيُّ اللِّبَاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ:
أَغْلَظُهُ، وَأَخَشَنُهُ، وَأَوْضَعُهُ عِنْدَ النَّاسِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ:
«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(١)؟! فَقَالَ: يَابْنَ أَخِي! لَقَدْ ذَهَبْتَ إِلَى غَيْرِ
الْمَذْهَبِ، لَوْ كَانَ الْجَمَالُ عِنْدَ اللَّهِ اللِّبَاسَ، لَكَانَ الْفُجَّارُ إِذَا عِنْدَهُ أَوْجَهَ مِنَ
الْأَبْرَارِ، إِنَّمَا الْجَمَالُ: التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ، وَمُجَانِبَةِ
الْمَعَاصِي، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنُهَا، وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

ولقد رُوِيَ أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِلْمُحَوَّارِيِّينَ: أَجِيعُوا أَكْبَادَكُمْ،
وَشَعِّتُوا رُؤُوسَكُمْ، وَضَعُوا عَلَيْهَا جِلْبَابَ الْحُزْنِ؛ لَعَلَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ بَعِيونَ
قُلُوبَكُمْ.

وكان يقول: قِيلَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: مَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ

(١) رواه الإمام أحمد في «المستد» (٢٣٨/٣)، وفي كتاب «الزهد» (ص: ١٠) بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ حَبٍّ، وَلَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ، وَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ آيَاتٍ، لَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ».

(٢) أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨٠/٣) بلفظ: «مَنْ اسْتَنَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ، سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ، لَهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ، لَهَا مِنَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهَّدَ فِي الدُّنْيَا، هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصِيبَاتُ» وقال: «هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، قَالَ بِحَيْثُ: لَيْسَ بِشَيْءٍ». وقال الغلاس والنسائي: متروك الحديث، على أن الحارث كذاب.

(١) «الموطأ»، في حسن الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق؛ برقم (٨) بلفظ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حَسْنَ الْخَلْقِ» وهو منقطع الإسناد، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه أحمد (٣٨١/٢) بلفظ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». وقال الهيثمي في «المجموع» (١٥/٩): «وَرَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ». وقال ابن عبد البر: «هُوَ حَدِيثٌ مُدْنِيٌّ صَحِيحٌ مُتَّصِلٌ مِنْ وَجْهِ صِحَاحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِ، فَالْحَدِيثُ حَسَنٌ بِشَوَاهِدِهِ».

(١) رواه الإمام أحمد في «المستد» (٢٣٨/٣)، وفي كتاب «الزهد» (ص: ١٠) بلفظ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ حَبٍّ، وَلَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ، وَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ آيَاتٍ، لَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ».

(٢) أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨٠/٣) بلفظ: «مَنْ اسْتَنَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ، سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ، لَهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ، لَهَا مِنَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهَّدَ فِي الدُّنْيَا، هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصِيبَاتُ» وقال: «هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -، وَفِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ، قَالَ بِحَيْثُ: لَيْسَ بِشَيْءٍ». وقال الغلاس والنسائي: متروك الحديث، على أن الحارث كذاب.

وقد أورده السيوطي في «اللائي المصنوعة» (٣٥٩/٢)، ونسبه للخطيب، وتمايم الرازي في «فرائده»، وابن صفوة في «أماليه».

قَدْرًا ؟ فقال : مَنْ لَا يُيَالِي الدُّنْيَا فِي يَدٍ مَنْ كَانَتْ .

وقيل له : فَمَنْ أَخْشَرُ النَّاسِ صَفَقَةً ؟ قَالَ : مَنْ بَاعَ الْبَاقِيَ بِالْفَانِي .

وقيل له : مَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ قَدْرًا ؟ قَالَ : مَنْ لَا يَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِهِ قَدْرًا .

وَيُرَوَّى أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ ؟ فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : «إِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ ، وَإِزْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»^(١) .

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وَجَبَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ : حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحُبُّ دِينِ اللَّهِ ، وَحُبُّ الْآخِرَةِ ، وَبُغْضُ الدُّنْيَا .

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ! مَا تَقُولُ فِي الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي دَارِ حَلَالِهَا حِسَابًا ، وَحَرَامِهَا عِقَابٌ ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ : تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَلَامًا أَوْجَزَ مِنْ كَلَامِكَ ، فَقَالَ الْحَسَنُ : بَلْ كَلَامُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْجَزُ وَأَبْلَغُ مِنْ كَلَامِي ؛ حَيْثُ كَتَبَ إِلَيْهِ عَامِلٌ حِمَصَ : إِنَّ سَوْرَهَا قَدْ تَهَدَّمَ ،

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ فِي الزَّهْدِ ، بَابُ : الزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا : بِرَقْمٍ (٤١٠٢) مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ . وَقَالَ فِي «الزَّوَائِدَ» : «فِي إِسْنَادِهِ خَالِدُ بْنُ عَمْرٍو ، وَهُوَ ضَعِيفٌ مُتَّفَقٌ عَلَى ضَعْفِهِ ، وَاتَّهَمَ بِالْوَضْعِ» . وَرَوَاهُ الْعَقِيلِيُّ فِي «الضُّعْفَاءِ» ، وَابْنُ عَدِيٍّ فِي «الْكَامِلِ» (١١٧/٢) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (١٣٧/٧) ، وَفِي «تَارِيخِ أَصْبَهَانَ» (٢٤٤-٢٤٥/٢) ، وَالْحَاكِمُ (٣١٣/٤) ، كُلُّهُمْ مِنْ طَرَفٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ عَمْرٍو ، عَنْ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ . وَقَالَ الْحَاكِمُ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ . وَرَدَّهُ الذَّهَبِيُّ يَقُولُهُ : خَالِدٌ وَضَاعٌ . وَلَهُ مُتَابِعٌ مِمَّنْ طَرِيقُ مُحَمَّدِ بْنِ كَثِيرٍ الصَّنَعَانِيِّ . ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «شَرْحِ السَّنَةِ» (٢٣٨/١٤) ، وَلَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ أَبِي نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٤١/٨) مِنْ حَدِيثِ مُنْصَوِّرِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ أَنَسٍ . وَقَدْ حَسَنَهُ النَّوَوِيُّ ، وَالْعِرَاقِيُّ . «جَامِعُ الْعُلُومِ» . وَأُورِدَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» بِرَقْمٍ (٩٤٤) . وَانْظُرْ : «الصَّحِيحُ الْجَامِعُ» بِرَقْمٍ (٩٢٢) .

وَاحْتِاجَ إِلَى الْإِصْلَاحِ لَا فَكْتَبَ إِلَيْهِ : حَصَّنَ مَدِينَتَكَ بِالْعَدْلِ ، وَنَفَّهَا مِنَ الظُّلْمِ ، فَأَمَّنَ عَلَيْهَا الْمَخَافَةَ ، وَتَرَجَّحَ لَهَا السَّلَامَةَ .

وَكَانَ يَقُولُ : رُؤِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى الدُّنْيَا : مَنْ خَدَمَنِي فَأَخْدُمِيهِ ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَخْدِمِيهِ .

* * *

ومن هذا الفصل

ما رُوِيَ عنه - رضي الله عنه - في قِصْرِ الأَمَلِ

كان الحسن - رحمه الله تعالى - يقول: ابن آدم! طأ الأرض بقدميك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك، ودع الغفلة؛ فإنك لم تول في هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك.

ابن آدم! لا تحمِلْ على يومك هم غدك، وليكف كل يوم همُّه، إن غداً إن كان من عمرك، أتاك فيه رزقك.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ عبداً جعل العيشَ عيشاً واحداً، فأكل ما يُمِسُّ رَمَقَهُ، ولبسَ خَلْقَهُ، وألصقَ بالأرضِ خَدَّهُ، مُجْتَهِداً في عِبَادَةِ رَبِّهِ، حتى يَأْتِيَهُ أَجَلُهُ، وهو كذلك.

وكان يقول: ما أطاعَ عبدُ الأملِ إلا أساءَ العملَ.

وقيل: مرَّ به بائعُ جاريةٍ، فساومَ فيها مالا كثيراً، فقال: بِعْهَا بِدِرْهَمٍ؛ فإن الله باعَ مِنْ عِبَادِهِ الحُورَ العينَ بالفلسِ واللُّقْمَةِ.

وكان يقول: ابن آدم! صُم كَأَنَّكَ إِذَا ظَمِئْتَ لَمْ تَكُنْ رَوَيْتَ، وَإِذَا رَوَيْتَ لَمْ تَكُنْ ظَمِئْتَ، فَإِنَّ الْحَالَ أَضْيَقُ، وَالْعُمُرُ أَقْصَرُ، وَالْأَمْرُ أَيْسَرُ أَنْ تَبْقَى فِيهِ عَلَى حَالٍ.

وكان يقول: دخلنا على صفوان بن محرز^(١)، وهو في بيتٍ من قَصَبٍ قد مالَ عليه، فقلنا: أَصْلَحَكَ اللهُ، لو أَصْلَحْتَ هذا البيتَ. فقال: كم من رجلٍ ماتَ وهذا مائلاً كما ترون!

وكان يقول: رأيتُ رجلاً أَصابَهُ الجَهْدُ، فَدَفَعَ لَهُ دِرْهَمًا، فقال: لا حَاجَةَ لِي فِيهِ، إِنْ السُّوقَ قَدْ ارْتَفَعَ، وَأَخَافُ أَنْ أَمُوتَ قَبْلَ إِنْقَافِهِ، وَأَتْرَكُهُ مِيراثاً، وَأَحَاسِبُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عِشْتُ غَدًا، كَانَ رِزْقِي عَلَى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ.

وكان يقول: إِنَّ اللهَ يَعْطِي العَبْدَ مَكْرَأً بِهِ، وَيَحْرِثُهُ؛ نَظَرًا لَهُ، وَمِنْ تَعَرُّضٍ لِمَكْرِ اللهِ، اسْتَوْجَبَ عُقُوبَتَهُ.

وكان يقول: ابن آدم! إِنَّمَا أَنْتَ عَدَدُ أَنْفَاسِكَ وَأَوْقَاتِكَ، كُلَّمَا مَضَى لَكَ وَقْتُ، انْقَضَى مِنْكَ بَعْضٌ. واللهِ دَرُّ الْفَائِلِ:

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقُطِعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى بَعْضٌ مِنَ الْأَجَلِ فَاغْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مُجْتَهِداً فَإِنَّمَا الرِّيحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْأَجَلِ وَكَانَ يَقُولُ: ابن آدم! إِنْ لَكَ أَجَلٌ وَأَمَلٌ، فَإِنْ أَدْرَكَكَ أَمَلُكَ، قَرَّبَكَ مِنْ أَجَلِكَ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ أَجَلُكَ، اجْتَنَحَكَ قَبْلَ أَمَلِكَ.

وكان يقول: اجتمع ثلاثة نفرٍ، فتكلموا في قِصْرِ الأَمَلِ، فقال أحدهم: ما مَرَّ بِي قَطُّ شَهْرٌ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنِّي أَمُوتُ فِيهِ.

وقال الآخر: ما مَرَّ بِي قَطُّ يَوْمٌ إِلَّا قَدَّرْتُ أَنِّي أَمُوتُ فِيهِ.

(١) صفوان بن محرز المازني البصري العابد، أحد الأعلام، حدث عن أبي موسى الأشعري، وعمران بن حصين، وابن عمر. وقال ابن جيان في «الثقات»: «مات سنة ٧٤ هـ».

وقال الثالث: العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ من آملِ أَجَلَهُ بيْدَ غَيْرِهِ، وَرِزْقُهُ عِنْدَ سِوَاهُ.

وَأُنْشِدُ:

مَا أُنْزَلَ المَوْتُ حَقًّا مَنَزِلُهُ مَنْ عَدَّ وَقْتًا لَمْ يَأْتِ مِنْ أَجَلِهِ
وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، جَعَلَ أَجَلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَمَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَلَمَّا وَقَعَ الْخَطِيبَةُ، حَوَّلَ، فَجُعِلَ أَمَلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَجَلُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَذَلِكَ مَا كَانَ فِي بَنِيهِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ، وَالْعَفْلَةِ عَنِ الْأَجَلِ.

وكان يقول: ابْنُ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ قَصَّرْتَ مَسِيرَ أَجَلِكَ، لَأَبْغَضْتَ غُرُورَ أَمَلِكَ، وَلَوْ أَبْصَرْتَ قَلِيلَ مَا بَقِيَ مِنْ عُمرِكَ، لَزَهَدْتَ فِي أَكْثَرِ مَا تَرْجُوهُ مِنْ أَمَلِكَ.

وقيل: صَلَّى الحَسَنُ عَلَى جَنَازَةٍ، ثُمَّ مَشَى إِلَى القَبْرِ، ثُمَّ قَالَ: يَا لَهَا مَوْعِظَةٌ وَعِظَةٌ بِهَا عِبَادُ اللهِ، لَوْ وَافَقَتْ قَلْبًا حَيًّا، وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ المَوْتَ قَضَحَ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَدَعْ لِذِي لُبٍّ فِيهَا بَعْدَهُ فَرَحًا، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا قُوَّتًا، وَتَرَكَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ فَاقَتِهِ وَفَقْرِهِ، فَكَأَنَّ المَوْتَ قَدْ نَزَلَ، وَانْقَطَعَ الْعَمَلُ، فَرَحِمَ اللهُ لَبِيًّا قَصَّرَ أَمَلَهُ، وَرَاقِبَ أَجَلَهُ.

وكان يقولُ إِذَا مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ -: اغْدُ، فَإِنَّا رَائِحُونَ، أَوْ: وَوَحُوا فَإِنَّا غَادُونَ.

وقيل: رَأَى الحَسَنُ عَلَى مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رِدَاءً صُوفٍ، فَقَالَ: أَيُعْجِبُكَ الطَّيْلَسَانُ، أَصْلَحَكَ اللهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: لِيَهْنُ عِنْدَكَ؟ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى شَاةٍ قَبْلَكَ، فَتَرَعَ عَنْهَا.

وكان يقول: أَيُّهَا المَرْءُ! أَجَلُكَ أَنْتَ السَّوَادُ الْمُحْتَطَفُ فِي يَوْمِكَ.

أَيُّهَا المَرْءُ! إِنَّكَ لَا تَدْرِي بِأَيِّ سَبَبٍ تَمُوتُ.

أَيُّهَا المَرْءُ! دَاوِ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ نَقِفَ بِكَ عَلَى الْعَطَبِ.

وقال: قِيلَ لَخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ^(١): مَا أَقْرَبُ شَيْءٍ؟ قَالَ:

الْأَجَلُ، قِيلَ لَهُ: فَمَا أَبْعَدُ شَيْءٍ؟ قَالَ: الْأَمَلُ، قِيلَ لَهُ: فَمَا آتَسُّ شَيْءٍ؟

قَالَ: الصَّاحِبُ المَوَاتِي، قِيلَ: مَا أَوْحَشُ شَيْءٍ؟ قَالَ: المَيِّتُ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَمِّ الدَّرْدَاءِ: إِنِّي لِأَجِدُ فِي قَلْبِي دَاءً

لَا أَجِدُ لَهُ دَوَاءً: أَجِدُ قَسْوَةَ شَدِيدَةً، وَأَمَلًا بَعِيدًا، فَقَالَتْ: اطَّلِعْ فِي

القُبُورِ، وَاحْضُرِ الجَنَازَتِ، وَشَاهِدِ المَوْتِ، فَعَسَاكَ أَنْ تُكْفَى.

وكان يقول: وَجِدَ فِي حَجَرٍ مَكْتُوبٌ: ابْنُ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ قَلِيلَ

مَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِكَ، لَزَهَدْتَ فِيمَا تَرْجُوهُ مِنْ أَمَلِكَ، وَلَرَغِبْتَ فِي الزِّيَادَةِ مِنْ

عَمَلِكَ، وَلَقَصَّرْتَ مِنْ حِرْصِكَ وَحِيلِكَ، وَإِنَّمَا يَلْقَاكَ غَدًا نَدَمُكَ، لَوْ قَدْ

رَأَيْتَ بِكَ قَدَمُكَ، وَأَسْلَمَكَ رَهْطُكَ وَحَسَمُكَ، وَتَبَرَّأَ مِنْكَ الْقَرِيبُ،

وَانصَرَفَ عَنْكَ الْحَبِيبُ، وَصَرْتَ تُدْعَى فَلَا تُجِيبُ.

وكان يقول: إِنْ رَجُلًا لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ إِلَّا أَبٌ مَيِّتٌ لَمُعْرِقٌ فِي

المَوْتِ.

وكان يقول: مَثَلُ الْعُلَمَاءِ فِي الْجُهَالِ مَثَلُ الْأَطِبَّاءِ فِي المَرَضَى.

وَسَمِعَ الحَسَنُ الْحَجَّاجَ يَخْطُبُ عَلَى مَنِيرِ البَصْرَةِ وَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ!

(١) خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ الْأُمَوِيُّ، أَبُو هَاشِمٍ الدَّمَشْقِيُّ، قِيلَ: تُرْفِي سَنَةَ أَرْبَعٍ أَوْ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ. وَقِيلَ: سَنَةُ تِسْعِينَ.

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ، فَلَا يَغُرُّكُمْ شَاهِدُ الدُّنْيَا عَلَى غَائِبِ الْآخِرَةِ، وَاقْتَهَرُوا طَوْلَ الْأَمَلِ بِقِصَرِ الْأَجَلِ، ثُمَّ يَقُولُ: عَجَبًا لِلْحَاجِّاجِ! كَيْفَ عَرَفَ مَا عَرَفَ، وَصُرِفَ عَنِ الْحَقِّ فَانْصَرَفَ.

* * *

الفصل الخامس

فيما أورده على جهة الاستغفار والدعاء
والنهي عن التصنُّع والرياء

إلهي! مَنْ أَوْلَى بِالزَّلِيلِ وَالتَّقْصِيرِ مِنِّي؟ وَأَوْلَى بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي؟ وَقَدْ خَلَقْتَنِي ضَعِيفًا لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
إلهي! عَلِمْتُكَ فِي سَابِقٍ، وَقَضَاؤُكَ بِي مُحِيطٌ، وَأَمْرُكَ فِيَّ نَافِذٌ، أَطَعْتُكَ بِإِذْنِكَ وَمَعُونَتِكَ، وَالْمِنَّةُ لَكَ، وَعَصِيَّتُكَ بِعِلْمِكَ، وَالْحُجَّةُ لَكَ، فَبِوَجُوبِ حُجَّتِكَ، وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي، ثَبَّتْ خَوْفُكَ فِي قَلْبِي حَتَّى لَا أَرْجُو سِوَاكَ، وَلَا أَخَافُ غَيْرَكَ.

اللَّهُمَّ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَاعْفُ لِي وَلِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَرُويَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا قَالَ: يَا مَنْ إِذَا اسْتَوْدَعَ شَيْئًا حَفِظَهُ وَأَدَّاهُ، اسْتَوْدَعَكَ مَنْ غَابَ عَنِّي، وَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِي وَوَلَدِي، وَكُلُّ مَا مَلَكَتْهُ يَدِي، فَاحْفَظْهُمْ يَا مَنْ لَا يُخَيِّبُ وَدَائِعُهُ.

وَكَانَ إِذَا عَرَضَ لَهُ هَمٌّ، أَوْ أَصَابَهُ كَرْبٌ، قَالَ: يَا حَابِسَ يَدِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ ذُبْحِ ابْنِهِ، وَهَمَّا يَتَنَاجِيَانِ فَيَقُولُ ابْنُهُ: ارْقُبْ يَا أَبَتِي، وَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: اصْبِرْ

أَبُو سُلُومِ الْعَتَزَلِي

لأمر ربنا يا بُنَيَّ، يا مُقْبِضَ الرِّكْبِ لِيُوسُفَ في الأرضِ التَّفَرُّ وَغِيَابَاتِ
الْجَبِّ، وَجَاعِلُهُ بَعْدَ الْعَبُودِيَّةِ مَلِكًا، يا سَامِعَ هَمْسِ ذِي النُّونِ فِي ظُلُمَاتِ
ثَلَاثٍ، يا رَادَّ بَصَرِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ، وَجَاعِلَ حُزْنِهِ فَرَحًا، يا رَاحِمَ عَبْرَةَ دَاوُدَ،
وَكَاشِفَ ضُرِّ أَيُّوبَ، يا مَنْ يَجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ، وَيُغْنِي مَنْ
اسْتَغَاثَ بِهِ وَرَجَاهُ، يا مَنْ لَا يُعْبَدُ رَبٌّ سِوَاهُ، يا عَالِمَ النَّجْوَى، وَكَاشِفَ
الْبَلْوَى، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ نَبِيَّكَ الْمُصْطَفَى، وَعَبْدِكَ الْمُتَرْضَى، مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَأَنْ تُكْفِيَنِي مَا أَهْمَنِي، وَتُفَرِّجَ كَرْبِي، يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ،
وَأَفْضَلَ مَنْ رُجِيَ، وَأَرْحَمَ مَنْ اسْتُرْحِمَ، افْعَلْ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ،
يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَكَانَ يَقُولُ إِذَا دَخَلَ الْجَبَانَةَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ، وَالْعِظَامِ
النَّخِرَةِ، الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ بَكَ مُؤَمَّنَةٌ، وَلِرَحْمَتِكَ رَاجِيَةٌ، أَرْسِلْ
عَلَيْهَا رَوْحًا مِنْكَ وَسَلَامًا مِنِّي.

لَمْ يَقُولْ: رُويَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ، اسْتَغْفَرَ لَهُ كُلُّ مَيِّتٍ مِمَّنْ خَلَقَ اللَّهُ
آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ^(١).

وَرُويَ: أَنَّ الْحَجَّاجَ أَخَافَهُ وَطَلَبَهُ، فَقَالَ: يا سَامِعَ دَعْوَتِي، ويا عُدَّتِي
فِي مُلَمَّتِي، وَكَاشِفَ كَرْبَتِي وَشِدَّتِي، ويا رَاحِمِي وَوَلِيَّ نِعْمَتِي، ويا إِلَهِي،
وإِلَهَ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطِ، وَمُوسَى،
وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٍ، وَرَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بِحَقِّ ﴿كَهَيْعَصَ﴾ وَ﴿طه﴾
و﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿، صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ
الطَّاهِرِينَ، وَاكْفِنِي شَرَّهُ، وَشَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَعَافِنِي مِنَ الْحَجَّاجِ، وَحَزَنِهِ،

وَأَشْيَاعِهِ، وَجُنْدِيهِ، وَاصْرِفْ عَنِّي بِقُدْرَتِكَ مَا يُحَاوِلُهُ، وَكُفَّ عَنِّي أَذَاهُ
وَشَرُّهُ، وَلَا تَجْعَلْ لَهُ عَلَيَّ سَبِيلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَسَلَّمَ.

وَكَانَ يَقُولُ إِذَا مَرَضَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ إِذَا مَرَضَ نَدِمَ، وَإِذَا شَفِيَ
فُتِنَ، وَإِذَا افْتَقَرَ حَزَنَ، وَاكْفِنِي اللَّهُمَّ كِفَايَةً مِّنْ اسْتِكْفَاكَ، وَعَافِنِي عَافِيَةً مِّنْ
اسْتِعْفَاكَ، وَوَفِّقْنِي اللَّهُمَّ لِمَحَبَّتِكَ وَرِضَاكَ، يَا مَنْ يَرْحَمُ مَنْ اسْتَرْحَمَهُ،
وَيُجِيبُ دَعَاءَ مَنْ دَعَاهُ.

وَقِيلَ: كَانَ يَغْشَى مَجْلِسَ الْحَسَنِ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَيُؤْذِي أَهْلَهُ،
فَقِيلَ لِلْحَسَنِ: أَلَا تَشْكُوهُ لِلْأَمِيرِ؟ فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ يَكْفِيَنَا إِيَّاهُ رَبُّ الْأَمِيرِ،
فَلَمَّا قَدِمَ الرَّجُلُ، اسْتَقْبَلَ الْحَسَنُ الْقَبِيلَةَ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ، فَخَرَّ
الرَّجُلُ عَنْ دَابَّتِيهِ، وَحُمِلَ حِينًا إِلَى أَهْلِهِ، فَعُرِفَ الْحَسَنُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي يَكْفِي مَنْ اسْتَكْفَاهُ، وَيَقْبَلُ دَعَاءَ مَنْ دَعَاهُ، يَا وَئِيحَهُ مَا كَانَ أَغْرَهُ بَرِيءًا!

وَكَانَ إِذَا فَرَّغَ مَجْلِسَهُ قَالَ: اللَّهُمَّ الْخَفْنِي بِصَالِحٍ مِّنْ مَّضَى، وَاجْعَلْنِي
مِنْ صَالِحٍ مِّنْ بَقِيَ، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ^(١).

وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْحَسَنِ مَوْتُ الْحَجَّاجِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ عَقِيرُكَ، وَأَنْتَ
قَتَلْتَهُ، اللَّهُمَّ فَأَمِيتْ حَاشِيَتَهُ.

وَكَانَ إِذَا خَتَمَ الْقُرْآنَ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الَّذِي

(١) وَذَلِكَ بَعْدَ كِفَارَةِ الْمَجْلِسِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ
الْعَاصِ، وَأَبِي بَرَّةَ الْأَسْلَمِيِّ، وَعَانِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَرَوَايَةُ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ: «مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ - قِيلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ
مَجْلِسِهِ -: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ
إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»، وَهُوَ صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ.

(١) لَمْ أَقِفْ عَلَى هَذَا الْأَثَرِ فِي أَذْكَارِ زِيَارَةِ الْمَقَابِرِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ بُوْحِي مِنَ
الشَّارِعِ، فَلَا تَبَاعَ هُوَ الْأَسْلَمُ، وَهُوَ مَنَهِجُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

لا يموت، وَبَلَغَتْ الرُّسُلُ الْكِرَامُ، وَنَحْنُ عَلَى مَا قَالَ رَبُّنَا وَمَوْلَانَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَأَصْحَابِهِ الْمُتَّحِبِينَ، وَأَزْوَاجِهِ أَقْمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ قَبْلَ رَغْبَتِنَا فِي تَعْلِيمِهِ، وَاخْتَصَصْتَنَا بِهِ قَبْلَ مَعْرِفَتِنَا بِفَضْلِهِ، وَمَنْنْتَ عَلَيْنَا بِهِ قَبْلَ عِلْمِنَا بِنَفْعِهِ، اللَّهُمَّ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مَتَا مِنْكَ وَجُوداً، وَكَرَمًا وَلُطْفًا لَنَا، وَرَحْمَةً وَسِعَتْنا مِنْ غَيْرِ حَوْلِنَا وَلَا حِيلَتِنَا، وَلَا قُوَّتِنَا، وَلَا قُدْرَتِنَا، اللَّهُمَّ فَهَبْ لَنَا رِعَايَةَ حَقِّهِ، وَحُسْنَ تِلَاوَتِهِ، وَحِفْظَ آيَاتِهِ، وَالْعَمَلَ بِمُحْكَمِهِ، وَتَبْيِينَ مُتَشَابِهِهِ.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِهِدَايَتِهِ، وَنُورِ قُلُوبَنَا بِبَصِيرَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ شِفَاءً لِأَوْلِيَائِكَ، وَشِفَاءً عَلَى أَعْدَائِكَ، وَعَمَى عَلَى أَهْلِ مَعَاصِيكَ، فَاجْعَلْهُ اللَّهُمَّ دَلِيلًا لَنَا عَلَى عِبَادَتِكَ، وَحِصْنًا خَصِينًا مِنْ عَذَابِكَ، وَنُورًا نَهْتَدِي بِهِ يَوْمَ لِقَائِكَ، وَنَسْتُضِيءُ بِهِ بَيْنَ خَلْقِكَ، وَنَجُوزُ بِهِ صَرَاطَكَ، وَنُصَلُّ بِهِ إِلَى جَنَّتِكَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَمَى عَنْ عِلْمِهِ، وَالْحَوْرِ عَنْ قَصْدِهِ، وَالتَّقْصِيرِ دُونَ حَقِّهِ.

اللَّهُمَّ احْمِلْ عَنَّا ثِقَلَهُ، وَيَسِّرْ لَنَا حِفْظَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَشْرُومُ بِحَقِّهِ، وَيُؤَدِّي فَرَائِضَهُ، وَيُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَسْتَسِينُ بِسُنَّتِهِ، وَيُحِلُّ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ.

اللَّهُمَّ اسْقِنَا مِنَ النُّومِ بِالْيَسِيرِ، وَأَيِّقِظْنَا عِنْدَ أَفْضَلِ الْأَجَلَيْنِ الَّتِي تُنْزَلُ فِيهَا الرَّحْمَةُ، وَتَسْتَجِيبُ الدُّعَاءُ.

اللَّهُمَّ وَانْفَعْنَا بِمَا صَرَفْتَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَذَكَّرْنَا بِمَا ضَرَبْتَ فِيهِ مِنَ

الْأَمْثَالِ، وَكَذَّرْ بِنُتْلَاوَتِهِ السَّيِّئَاتِ، وَلَقِّنَا بِهِ الْبُشْرَى عِنْدَ الْمَمَاتِ.

اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِالْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ قَسَاوَةِ قُلُوبِنَا، وَنَسْأَلُكَ الْعَفْوَ عَنْ جَرَائِمِنَا وَذُنُوبِنَا.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ جَعَلْتَ الْقُرْآنَ مُبَارَكًا، فَارْزُقْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ بَرَكَتٍ، وَنَجِّنَا بِهِ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا شَافِعًا مُشَفَّعًا، وَنُورًا وَشِفَاءً وَهُدًى وَمَوْعِظَةً.

اللَّهُمَّ أَلْزِمِ قُلُوبَنَا بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَيَسِّرْ لَنَا بِهِ كَثْرَةَ الْاسْتِغْفَارِ، وَاجْعَلْ لِقُلُوبِنَا ذِكَاةً فِي تَفْهَمِهِ، وَلَذَّةً فِي تَرَدُّدِهِ، وَعَبْرَةً عِنْدَ تَرْجِيْعِهِ حَتَّى لَا نَبْتَغِيَ بِهِ بَدَلًا، وَلَا نَشْتَرِيَ بِهِ ثَمَنًا، وَلَا نُؤْثِرَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا غَرَضًا، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ رِبْعَ قُلُوبِنَا، وَشِفَاءَ صُدُورِنَا، وَنُورَ أَبْصَارِنَا، وَجِلَاءَ أَحْزَانِنَا، وَذَهَابَ هُمُومِنَا وَغُمُومِنَا، وَقَائِدَنَا وَدَلِيلَنَا إِلَى جَنَّاتِ النِّعَمِ.

اللَّهُمَّ لَا تَدْخُلْ لَنَا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ، وَلَا دَيْنًا إِلَّا قَضَيْتَهُ، وَلَا غَائِبًا إِلَّا رَدَدْتَهُ، وَلَا مَيْتًا إِلَّا رَحِمْتَهُ، وَلَا مَرِيضًا إِلَّا شَفَيْتَهُ، وَلَا حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكَ فِيهَا رِضًا، وَلَنَا فِيهَا فَائِدَةً إِلَّا أَتَيْتَ عَلَى قَضَائِهَا فِي يُسْرٍ مِنْكَ وَعَافِيَةٍ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، يَا مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ.

وَصَلَّى اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ.



ما رُوِيَ عنه - رحمه الله - من نهيه عن التصُّعِ وذمِّ الرياء

وكان - رحمه الله - يقول: ابن آدم! لا تعمل شيئاً من الحقِّ رياءً، ولا تتركه خياءً.

وقيل: وعَظَّ يوماً فتنفس رجل الصُّعْدَاء، فقال: يا ابن أخي! ما عساكَ أردت بما صَنَعْتَ؟ إن كنت صادقاً، فقد شَهَرْتَ نَفْسَكَ، وإن كنت كاذباً، فقد أَهْلَكْتَهَا، ولقد كان الناسُ يجتهدون في الدعاء، وما يُسْمَعُ لأحدهم صوتٌ، ولقد كان الرجلُ ممَّنْ كان قبلكم يستكمل القرآنَ، فلا يسمعُ به جاره، ولقد كان الآخرُ يتفقه في الدين، ولا يُطْلَعُ عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أَقْلُ التفاتِكَ في صَلَاتِكَ، وأَحْسَنُ خُشُوعِكَ! فقال: يا ابن أخي! وما يُدْرِيكَ أين كان قلبي؟

وكان يقول: نظَرَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ^(١) إلى رجلٍ يتناeus بعد الصُّبْحِ، فقال: انتبه - عافاك الله - لا يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ سَهْرِ وَصَلَةٍ، فَيَحْبِطَ عَمَلُكَ.

ولقد رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لهُ رجلٌ: يا رسولَ الله! اشتَبَهَ علينا التَّفَاقُّ، فما هو؟ فقال - عليه السلام -: «المُرَائِي مُنَافِقٌ».

(١) رجاء بن حيوة بن جرول، وقيل: ابن جندل، وقيل: ابن جندل: الإمام، أبو نصر الكندي الأزدي الفلسطيني، من أكابر التابعين، مات سنة اثنتي عشرة ومئة.

وقيل: رأى الحسنُ على فرقة السُّبْحِيِّ كساء صوفٍ، فقال: يا فرقة! لعلَّكَ تحسِبُ أَنَّ لَكَ بكسائِكَ على الناسِ فضلاً؟ ولقد بلغني أن أكثرَ لباسِ أهلِ النارِ الأكسِيَّةُ.

وكان يقول: المُرَائِي يُرِيدُ أَنْ يَغَالِبَ قَدَرَ اللَّهِ فِيهِ، هو عند الله فاسقٌ ممقوتٌ، وقد أَطْلَعَ على ذلك عباده المؤمنين، وهو يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ الناسُ: هذا صالحٌ، وأنِّي له بذلك، وعِلْمُ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - بريائه قد ثَبَتَ في نُفُوسِ عِبَادِهِ؟

قال الحسنُ: ولقد حَدَّثْتُ أَنَّ رجلاً مرَّ برجلٍ يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١)، فقال: والله! لأعبدنَّ اللهَ عِبَادَةً أَذْكَرُ بها في الدنيا! فلزِمَ الصلاةَ، واعتكفَ على الصَّيامِ، حتى كان لا يُفْطِرُ، ولا يُرى إلا مُصَلِّياً وذاكراً، وكلُّما مرَّ على قومٍ قالوا: لا يزالُ هذا يرائي، ما أَكْثَرَ رِياءَهُ! فأقبلَ على نفسه وقال: ثَكَلْتُكَ أَهْلُكَ، ولا أراك تُذَكِّرِينَ إِلَّا بِشَرٍّ، ولا أراك أُصِيبُ إِلَّا بِفَسَادِ دِينِكَ، وفسادِ مُعْتَقِدِكَ، وإنَّكَ لم تُرِيدِي اللَّهَ بِعَمَلِكَ. ثم بَقِيَ على عَمَلِهِ لم يَزِدْ عليه شيئاً، إِلَّا أَنَّ نِيَّتَهُ انْقَلَبَتْ، فانقلبَ علمُ الناسِ فيه، فكان لا يَمُرُّ بقومٍ إِلَّا قالوا: رَجِمَ اللَّهُ هَذَا! ثم يقولون: الآنَ الآنَ.

وكان الحسنُ يقول: أَخْلِصُوا لِلَّهِ عَمَلَكُمْ؛ فقد رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«مَنْ أَحْسَنَ صَلَاتَهُ حِينَ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا حِينَ لَا يَرَاهُ، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتِهَانٍ بِهَا رَبُّهُ»^(٢).

(١) سورة مريم: ٩٦.

(٢) رواه أبو يعلى من حديث عبد الله بن مسعود، وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو =

وكان عليه السلام يقول: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَقَرَهُ وَصَغَّرَهُ»^(١).

وكان الحسن يقول: ابن آدم! أما تستحي؟ تتكلم بكلام الفاسقين^(٢)، وتسطو سطوة الجبارين.

وكان يقول: ابن آدم! تلبس لبسة العابدين، وتعمل أفعال الفاسقين، وتخبث إخبات المذبرين، وتنظر نظراً المعتبين، ويحك! ما هذه خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدي مَنْ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقيل: كان الحسن يقول: رُوي أن مَنْ قَبَلَ اللَّهَ - سبحانه وتعالى - مِنْ عَمَلِهِ حَسَنَةً وَاحِدَةً، أَدْخَلَهُ بِهَا الْجَنَّةَ، قِيلَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! وَأَيْنَ يَذْهَبُ بِحَسَنَاتِ الْعِبَادِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنَّمَا يَقْبَلُ الْخَالِصَ الطَّيِّبَ الْمُجَانِبَ لِلْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ، فَمَنْ سَلِمَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ، فَهُوَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ.

وكان يقول: رُوي أن سعيد بن جبيرة^(٣) رأى رجلاً متمماتاً في العبادة،

= ضعيف، «مجمع الزوائد» (١٠/٢٢١)، وانظر: «ضعيف الجامع» رقم (٥٣٦١).

(١) رواه البخاري في الرقائق، باب: الرياء والسمة (١١/٣٣٦) بنحوه. وفي الأحكام، باب: من شاق شق الله عليه (١٣/١٢٨) بنحوه.

ومسلم في الزهد، والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٩٨٧) بنحوه، كلاهما من حديث جندب.

وعن ابن عباس رواه مسلم في الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٩٨٦) بنحوه.

(٢) هكذا في المخطوط. ولعل الصواب: القاتنين.

(٣) سعيد بن جبيرة الأسدي، أبو عبد الله، تابعي ثقة، ثبت، فقيه، قُتل على يد الحجاج

فقال: يا ابن أخي! إن الإسلام حي، فأحيه، ولا تُمِته، أَمَاتَكَ اللَّهُ ولا أحياك.

وكان يقول: مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ فِي الْمَلَأِ، فَقَدْ مَدَحَهَا، وَبُشِّرَ مَا صَنَعَ.

وكان الحسن يروي: أن عائشة - رضي الله عنها - رأت رجلاً متمماتاً، فقالت: ما بال هذا؟ قالوا: إنه صالح، فقالت: لا أبعده الله غيره، كان عمر - رضي الله عنه - أصالح منه، وكان إذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، فدعوا التصنع؛ فإن الله لا يقبل من مُتَّصِعٍ عملاً.

وكان يقول: رُوي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وكان يقول: مَنْ تَزَكَّى لِلنَّاسِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْهُ، شَانَهُ عِنْدَ اللَّهِ ذَلِكَ.

وكان يقول: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وكان يقول: إِنْ كَانَ فِي الْجَمَاعَةِ فَضْلٌ؛ فَإِنَّ فِي الْعِزَّةِ السَّلَامَةَ.

ولقد رُوي: أن أبا هريرة مرَّ بمروان بن الحكم^(١) وهو يبني داره، فقال: إني أبا عبد القدوس! ابن شديد، وأمل بعيداً، وعش قليلاً، وكل خضماً، والموعِدُ الله.

وكان يقول: قديماً امتحن الناس بطول الأمل.

■ سنة خمس وتسعين، ولم يكن يكمل الخمسين.

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وُلد بمكة، من كبار التابعين، وقيل: له رؤية، مات خنقاً من أول رمضان سنة خمس وستين، وقيل: مات بالطاعون.

لقد رُوِيَ أَنَّ حَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ^(١) قَالَ : كَانَ أَبُو عَثْمَانَ النَّهْشَلِيُّ^(٢) يَقُولُ :
أَتَتْ عَلِيٍّ مِثَّةٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً ، مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ أَنْكَرْتُهُ ، إِلَّا أَمَلِي ؛ فَإِنَّهُ
يَزِيدُ كُلَّ يَوْمٍ .

وَقِيلَ : جَزَعَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى امْرَأَتِهِ لَمَّا مَاتَتْ جَزَعًا شَدِيدًا ، فَنَهَاهُ
الْحَسَنُ عَنِ الْجَزَعِ ، فَجَعَلَ بَكْرٌ يَصِفُ فَضْلَهَا ، فَقَالَ الْحَسَنُ : عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
مِنْهَا ، فَتَزَوَّجَ أُخْتَهَا ، ثُمَّ لَقِيَ الْحَسَنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ! هِيَ
خَيْرٌ مِنْهَا ، فَقَالَ : لِيُغَيِّرَهَا مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ - عَافَاكَ اللَّهُ - كُنْتُ أَشْرْتُ لَكَ ،
ثُمَّ أَنْشَدَهُ :

تَوَّمَلْتُ أَنْ تُعَمَّرَ عُمَرُ نُوحٍ وَأَمُرُ اللَّهِ يَطْرُقُ كُلَّ لَيْلَةٍ
وَكَانَ يَقُولُ : رَأَى بَعْضُ النُّسَاكِ صَدِيقًا لَهُ مَهْمُومًا ، فَسَأَلَهُ عَنْ هَمِّهِ ؟
فَقَالَ : كَانَ عِنْدِي يَتِيمٌ أَحْتَسِبُ فِيهِ الْآجَرَ ، فَمَاتَ ، قَالَ صَدِيقُهُ : فَاطْلُبْ
يَتِيمًا غَيْرَهُ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْدَمَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَخَافُ إِلَّا أَجَدَ يَتِيمًا فِي مِثْلِ سُوءِ
خُلُقِهِ ، فَقَالَ صَدِيقُهُ : أَفَّ نَكَ ، أَمَا لَوْ كُنْتُ مَكَانَكَ لَمْ أَذْكَرْ سُوءَ خُلُقِهِ ؛
كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَسْبَحَ بِمَا كَانَ يَلْقَى مِنْهُ .

وَكَانَ يَقُولُ : رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ : أَضْحَكَنِي ثَلَاثَةٌ ، وَأَبْكَانِي
ثَلَاثَةٌ : أَضْحَكَنِي مُؤَمِّلُ دُنْيَا ، وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ لَا يُغْفَلُ عَنْهُ ،
وَصَاحِكٌ مِلَّةً فِيهِ ، وَلَا يَدْرِي أَرَأْسِي رَيْثُ أَمْ غَضْبَانُ عَلَيْهِ . وَأَبْكَانِي مَوَلُ

(١) حماد بن سلمة بن دينار: الإمام القُدوة، أبو سلمة البصري. مات في سنة سبع وستين
ومئة .

(٢) هكذا ورد في المخطوط ، والصواب هو: أبو عثمان النهدي: عبد الرحمن بن مل بن
عسرو بن عدي البصري، مخضرم معمر، أدرك الجاهلية والإسلام. مات سنة مئة ،
وقيل غير ذلك .

الْمَطْلَعِ ، وَانْقِطَاعِ الْعَمَلِ ، وَسَوْفَتْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، لَا أَدْرِي
أَيُّ مَرْبِي إِلَى الْجَنَّةِ ، أَمْ إِلَى النَّارِ ؟

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : إِنْ لَمْ تَعَالَى تَزَاوَلْ فِي خَلْقِهِ ، لَوْلَا ذَلِكَ ، لَمْ يَنْتَفِعِ
النَّبِيُّونَ وَأَهْلُ الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا ؛ وَهُوَ الْأَمَلُ ،
وَالْأَجَلُ ، وَالنِّسْيَانُ .

الفصل السادس

فيما روي عنه عند تلاوة القرآن من الحكم والمواعظ

كان الحسن يقول: روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: أيها الناس! اقروا القرآن، وابتغوا ما عند الله - عز وجل - بقرائه، من قبل أن يقرأه قومٌ يبتغون به ما عند الناس.

وكان يقول: إن الرجل إذا طلب القرآن والعلم لله - عز وجل - لم يلبث أن يرى ذلك في خُشوعه، ورُؤيته، وحِلْمه، وقَواضيه.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً خلا بكتاب الله - عز وجل -، وعَرَضَ عليه نفسه، فإن وافقه، حَمِدَ رَبَّهُ، وسأله المزيدَ من فضله، وإن خالفه، تاب وأناب ورجع من قريب.

وكان يقول: أيها الناس! إن هذا القرآن شفاء المؤمنين، وإمام المتقين، فمن اهتدى به هُدي، ومن ضلَّ عنه شقي وابْتُلِيَ.

وكان يقول: إن من شرِّ الناس أفواماً قرؤوا القرآن لا يعملون بسنته، ولا يتبعون لطريقته ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١).

لقد كان من تقدَّم يقرأ القرآن، ويقوم بالسورة منه طولَ ليلته، فإذا

أصبح عُرِفَ ذلك في وجهه، وإن أحدكم يقرأ القرآن لا يتجاوز لَهَوَاتِهِ، والله سبحانه يقول: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِنَذَرُهَا لِقَائِهِ﴾ (٢).

أما - والله - ما هو حِفْظُ حروفه، وإضاعةُ حدوده، وإن أحدكم يقول: قرأت القرآن ما أسقطت منه حرفاً، كذب - لعمر الله - لقد أسقط كله، والله ما هؤلاء القراء ولا العلماء ولا الحكماء، ومتى كانت القراءة تقول: مثل هذا؟ إن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (٣) يريد: جلَّ ثناؤه - العمل به، وقال - عز وجل -: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْبَرْ فَكَانَ قُرْآنُهُ﴾ (٤)؛ أي: حُلُّ حلاله، وحرَمُ حرامه، ولقد تُوفِّي رسولُ الله ﷺ، وما استكمل حفظ القرآن من أصحابه - رضوانُ الله تعالى عليهم - إلا النفر القليل؛ استعظماً له، ومتابعة أنفسهم بحفظ تأويله، والعمل بمحكميه ومُتَشَابِهِهِ.

وكان الحسن يقول: قراء القرآن ثلاثة نفر: قومٌ اتخذوه بضاعةً يطلبون به ما عند الناس، وقومٌ أجادوا حروفه، وضيعوا حدوده، استدروا به أموالَ الولاء، واستطالوا به على الناس، وقد كثر هذا الجنس من حَمَلَةِ القرآن، فلا كثر الله جمعهم، ولا أبعد غيرهم، وقومٌ قرؤوا القرآن، فلدَّبَرُوا آياته، وتداووا بدوائه، واستشفوا بشفايته، ووضعوه على الداء من فلوبهم، فهم الذين يُسْتَشْفَى بهم الغيثُ، وتُسَدَّى من أجلهم النعمُ، وتُسَدَّفُ بدعائهم النقمُ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم الغالبون.

ولقد روي: أن وفداً من أهل اليمن قَدِمُوا على رسولِ الله ﷺ، فقروا عليهم القرآن، فبكوا، فقال أبو بكر: هكذا كنَّا حتى قَسَتْ قلوبنا.

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة المزمل: ٥.

(٣) سورة القيامة: ١٨.

(٤) سورة البقرة: ١٥٩.

وكان يقول: أيها الناس! عليكم بالنظر في المصاحف، وقراءة القرآن فيها؛ فقد روي أن عثمان - رضي الله عنه - كان يقول: إني لأكره أن يمضي عليّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله سبحانه، يعني: المصحف، فقليل له في ذلك، فقال: إنه مبارك، وكان يقرأ القرآن في المصحف تبرّكاً به.

وكان لا يزال يرى المصحف في حجره، وكان من أحفظ أصحاب النبي ﷺ لكتاب الله - عز وجل -.

وقيل: قدّم للحسن - رحمه الله - عشاءه، فلما بدأ يأكل منه، سمع قارئاً يتلو: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَصَبًا﴾ (١) وطعاماً ذا عَصَ وَغَدَاً أَلِيماً (٢) فقال: يا جارية! ارفعي عشاءك، وما زال يُردّد الآية ويبكي بقية ليلته.

وقيل: بل بقي كذلك ثلاثاً حتى أحضر ولده قوماً من أصحابه، وأحضروا طعاماً، فراكلهم، وقرأ: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٣)، ثم قال: أوّاه! أي موعظة وعظ الله سبحانه عباده لو كانوا قائلين ١٩ وقرأ: ﴿أَبُودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَنْتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤).

ثم قال الحسن: هذا مثل ضربة الله لعباده، انتفع به وأبصره من أراد به برشاده؛ يقول الله سبحانه: مثل الرجل إذا كبرت سنّه، وزيّ عظمه، وكثر

عِياله، واحتاج لزوجه، فاحترقته النار أخرج ما كان إليه، كمثلي ابن آدم يقوم يوم القيامة، وهو غريان ظمآن فقير إلى ما قدّم من عمل صالح، توهّم أنه له، فوجده قد أذهبت الشباعت، وأسقطته الخطايا أخرج ما كان إليه، وأعظم ما كان رجاء أن يعود نفعه عليه.

وقرأ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١)، فقال: كانوا يُديمون صلاتهم إلى السحر، ثم يجلسون يستغفرون.

وسئل عن ناشئة الليل، فقال: هي من أوّل إلى الفجر. وقرأ يوماً: ﴿وَعَسَاؤُاْ الرَّحَىٰ أَلْدَسَ يُعْشَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ وَهَبًا وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَحِيلُ قَالُوا سَلَمًا﴾ (٢)، ثم قال: هم المسلمون الذين لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلّموا، ولم يغلّوا.

وقرأ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْوَةٍ وَنُخْرِجُهُ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (٤)، ثم قال: ابن آدم! لقد عدل فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقرأ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (٥). ثم قال: آخر العذد خروج النفس، آخر العذد فراق الأحبة والوليد، آخر العذد دخول القبر، فالمبادرة عباد الله إلى الأعمال الصالحة، ثم يقول: عباد الله! إنما هي الأنفاس، لو قد حبست، لا تقطعت الأعمال التي بها تتقربون، والحسنات التي عليها تتوكّلون،

(١) سورة الذاريات: ١٧.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

(٣) سورة الإسراء: ١٣-١٤.

(٤) سورة مريم: ٨٤.

(١) سورة المزمل: ١٢-١٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٨١.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٦.

فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا حَاسِبَ نَفْسَهُ، وَخَافَ رَبَّهُ، وَاتَّقَى ذَنْبَهُ.

وقرأ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١)، فاضطربت رُكْبَتَاهُ، وَجَرَتْ دُمُوعُهُ، ثُمَّ قَالَ: رُؤِي أَنْ النَّارَ نَأْكُلُ لُحُومَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: عُدُّوا، فَيَعُدُّونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ عَمَلٍ نَسْتَوْجِبُ بِهِ النَّارَ.

وقرأ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِمَا غَفَى النَّارُ﴾^(٢)، ثُمَّ قَالَ: صَبَرُوا عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا، وَزَهَّدُوا فِي الْفَنَانِي، فَتَالُوا الْآخِرَةَ، وَحَسُنَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

وقرأ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(٣)، فَقَالَ: رُؤِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: كَانَ الْكَنْزُ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فِيهِمَا مَكْتُوبٌ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجَبًا لِمَنْ يَعْرِفُ الْمَوْتَ كَيْفَ يَفْرَحُ؟ وَلِمَنْ يَعْرِفُ النَّارَ كَيْفَ يَضْحَكُ؟ وَلِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَقَلْبُهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ وَيَسْكُنُ؟ وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ كَيْفَ يَتَعَبُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَيَنْصَبُ؟ وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِالنَّارِ كَيْفَ يَعْمَلُ الْخَطَايَا؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ^(٤).

وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾^(٥)، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَوْسَعَ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَأَعَمَّ فَضْلُهُ،

وَأَلْطَفَ صُنْعُهُ! جَعَلَ لِمَنْ عَجَزَ فِي النَّهَارِ خَلْفًا فِي اللَّيْلِ، وَلِمَنْ قَصَرَ فِي اللَّيْلِ خَلْفًا فِي النَّهَارِ.

وقرأ: ﴿وَوَعَدْتُكَ لَرَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ: عَجَبًا لِمَنْ يَخَافُ مَلَكَاءَ، أَوْ يَتَّقِي ظَالِمًا بَعْدَ إِيمَانِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ١٩! أَمَا - وَاللَّهِ - لَوْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا ابْتَلَوْا صَبَرُوا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، لَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ كُرْبَهُمْ، وَلَكِنْهُمْ جَزِعُوا مِنَ السَّيْفِ، فَوَكَّلُوا إِلَى الْخَوْفِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الْبَلَاءِ.

وقرأ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾^(٢)، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ مَنْظَرٍ عِبَادَ اللَّهِ؟ مَا أَسْوَأُهُ! فَاحْذَرُوهُ.

وَرُؤِي أَنَّ النَّارَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ لَفْحَةً، فَلَا تَدْعُ لَحْمًا وَلَا جِلْدًا، إِلَّا أَلْفَتَهُ عَلَى الْعَرَاقِبِ، وَأَبْقَتِ الْوُجُوهَ كَالِحَةً، ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ بَكَ نَسْتَعِذُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَبِشْنِ الْمَصِيرِ.

وقرأ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣)، ثُمَّ قَالَ: إِنْ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ قَوْلًا حَسَنًا، وَعَمَلَ عَمَلًا صَالِحًا، رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ بِعَمَلِهِ، وَإِنْ قَالَ حَسَنًا، وَعَمَلَ عَمَلًا سَيِّئًا، رَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

وقرأ: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَغَ قَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤): الَّذِينَ كَسَبُوا الدُّنْيَا الْحَرَامَ، وَأَنْفَقُوهَا إِسْرَافًا وَتَبْدِيرًا

(١) سورة النساء: ٥٦.

(٢) سورة الرعد: ٢٤.

(٣) سورة الكهف: ٨٢.

(٤) روى ذلك الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس (٦/١٦)، ثم رُجِّحَ خلافه. وانظر:

«تفسير البغوي» (١٩٦/٥)، طبعة دار طيبة.

(٥) سورة الفرقان: ٦٢.

(١) سورة الأعراف: ١٣٧.

(٢) سورة المؤمنون: ١٠٤.

(٣) سورة فاطر: ١٠.

(٤) سورة الأحقاف: ٣٥.

في الشهوات ﴿وَسَبِّعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مَنَقَلِبٍ يَنْفَلِبُونَ﴾^(١).

وقرأ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^(٢)، فقال: ابنُ آدمَ فاسقٌ في الدنيا، حائلٌ حينَ لَآتِ حَبْدَةٍ، ولا يُمَكِّنُ حَرْبٌ ولا غِيْبَةٌ.

وكان إذا قرأ: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ بِهَا لَمَّ يَلْبَسُوا إِلَّا عَجِيْبَةً أَوْ صَحْبَةً﴾^(٣) يقول: ابنُ آدمَ! ما لك في عُذْرَةٍ أو رَوْحَةٍ ١٩ ما تصبرُ على المعصية ١٩.

وكان إذا قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٤)، يقول: كان القومُ - والله - أهلَ تَرَاؤُفٍ وتَراحُمٍ، وإِنَّا لفي خَلَفٍ كَجَلَدِ الأَجْرِبِ.

وكان إذا قرأ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٥)، قال: رَحِمَ اللهُ عبداً كَسَبَ مِنْ طَيِّبٍ، وَأَنْفَقَ قَصْداً، وَقَدَّمَ لِيَوْمٍ فَفَرِهَ وَشَدَّةَ حَاجَتِهِ فَضْلاً، ثم يقول: وَجَّهوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - فَضُولَ أَمْوَالِكُمْ حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَضَعُوهَا حَيْثُ وَضَعَهَا؛ فَإِنَّ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، كَانُوا يَأْخُذُونَ قَلِيلاً، وَيُبَايِعُونَ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - أَنْفُسَهُمْ بِالْفَضْلِ.

وكان إذا تلا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾^(٦)، قال: يعملون

ما يعملون من برٍّ، ويَشُدُّونَ ما يقدِّمونَ مِنْ خَيْرٍ، وهم خائفونَ أَلَّا يُنَجِّبَهُمْ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وكان إذا تلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١)، قال: ويحَ ابنُ آدمَ! ما خَلَقَ اللهُ خَلْقاً يُكَابِدُ من هذا العيشِ ما يُكَابِدُ هُوَ.

وكان إذا تلا: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾^(٢)، قال: لنَرْزُقَنَّهُ طَاعَةً يَجِدُ لَدَّتْهَا فِي قَلْبِهِ.

وروي أنه قال: لنَرْزُقَنَّهُ رِزْقاً لا نُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ، ثم يقول: كُلُّ حَيَاةِ ابنِ آدمَ - والله - مُرَّةٌ؛ إِلَّا حَيَاتُهُ فِي الْجَنَّةِ.

وكان إذا تلا: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾^(٣) إلى آخر الآية، يقول: حوتٌ حَرَّمَ اللهُ نَعَالِي عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ يوماً من أيامِ الجمعةِ، وَأَحْلَهُ فيما سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأيامِ، وَكَانَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ التَّحْرِيمِ كَالْمُحَاصِرِ ما يَمْتَنِعُ؛ من أَجْلِ المِخْنَةِ والبَلِيَّةِ والاختبارِ بالطاعةِ، فَجَعَلُوا يَلْهُونَ بِأَخْذِهِ، وَيُتَسَكِّونَ مَخَافَةً وَتَعَبُداً.

وقال: ما هَمَّ عَبْدٌ بِذَنْبٍ إِلَّا وَافَقَهُمْ فِيما عَزَمُوا عَلَيْهِ، فَأَخَذُوهُ، وَأَكَلُوهُ - والله - أَوْحَمَ أَكَلَةٍ أَكَلَهَا قَوْمٌ، فَتَوَدُّوا ثَلَاثاً وَهُمْ نَائِمُونَ، ثُمَّ نَوَدُّوا: يَا أَهْلَ الْقَرْيَةِ! فَانْتَبَهَ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ والصِّبْيَانُ، فَقِيلَ لَهُمْ: كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ؛ فَكَانُوا كَذَلِكَ.

وايمُ اللهِ! لَحَرَمَةُ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُقْتَلُ ظُلْماً أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ كُلِّ حَوْتٍ

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) سورة ق: ١٩.

(٣) سورة النازعات: ٤٦.

(٤) سورة الحشر: ١٠.

(٥) سورة الفرقان: ٦٧.

(٦) سورة المؤمنون: ٦٠.

(١) سورة البلد: ٤.

(٢) سورة النحل: ٩٧.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٣.

خُلِقَ، وَلَكِنْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى مُوعِدَ قَوْمِ السَّاعَةِ ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (١).
 وقرأ: ﴿فَلَمَّا هِيَ رَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٢) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (٣)، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَكَمِدُونَ﴾ (٤)، فكان يقول: أيها الناس! الزجرة من الغضب، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ، فَلْيَحْذَرُ غَضَبَهُ.

وكان يقول إذا تلا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَاقٍ (٦)، ثم قال: معشر الناس! ما ظنكم بقوم وقفوا في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فلما انقطعت أعتاقهم من الجوع والعطش والخوف، أمر بهم إلى نار وجحيم وحميم! اللهم بك العباد، وأنت المعاد، وإليك اللجأ، وعليك التوكُّل، فنجنا برحمتك من عذابك يا غفور.

وكان إذا تلا: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٧)، قال: رَجِمَ اللَّهُ قَوْمًا كَانَ خُشُوعُهُمْ فِي الْقُلُوبِ، فَغَضُّوا أَبْصَارَهُمْ، وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ، وَتَجَنَّبُوا الْمَحَارِمَ، فَتَالُوا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ.

وسئل عن قول الله - عز وجل -: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (٨)، فقال: من جاء به - لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، مُخْلِصاً بِهَا قَلْبَهُ، فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ - عز وجل - الجنة.

وتلا: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٩)، ثم قال: إنما جزاء من قال: لا إله إلا الله، أن يدخل الجنة.

وقرأ: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ (١٠)، فقال: ذلك المؤمن، الحذر، الفطن، الكيس، الذي علم أن له معاداً، فقدم عملاً صالحاً، ثم قدم عليه فسره، وهو يوم: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (١١).

وتلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢)، فقال: هو الذنب على الذنب حتى يموت، ويسود القلب.

وتلا: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ (١٣)، ثم قال: لا تستكثر عملك؛ فإنك لا تعلم ما قبلي منه، وما رد فلم يقبل.

وقرأ: ﴿آلِهَتَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (١٤)، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ألهي - والله - عن نار الخلود، وشغل عن نعيم لا يبيد، ثم قرأ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١٥)، ثم قال: أيها الناس! لو توعَّدكم مخلوق يموت، ما استقر بكم القرار، فكيف بوعيد ملك الملوك، والحي الذي لا يموت!؟

وكان إذا قام بالقرآن، وانتهى إلى هذه السورة، لم يتجاوزها، ولا يزال يرددّها ويبكي إلى أن ينقطع نحيبه - رحمه الله عليه، ورضوانه لديه -.

(١) سورة الرحمن: ٦٠.

(٢) سورة النبأ: ٤٠.

(٣) سورة النبأ: ٤٠.

(٤) سورة المطففين: ١٤.

(٥) سورة المدثر: ٦.

(٦) سورة التكاثر: ١.

(٧) سورة التكاثر: ٣.

(١) سورة القمر: ٤٦.

(٢) سورة النازعات: ١٣-١٤.

(٣) سورة يس: ٢٩.

(٤) سورة الرحمن: ٤٣-٤٤.

(٥) سورة المؤمنون: ٢.

(٦) سورة الأنعام: ١٦٠.

كَذِبْتُ، وَأَمْنَاءُ عَمْرُو، وَسَلَامَاءُ لِسَقْمُ، وَعُرْفَاءُ ظَلَمْتُ، وَإِنِّي لَا تَخَوْفُ أَنْ يَكُونَ وَفَقْنَا هَذَا.

وقيل: أَحْضَرَ النَّضْرُ بْنُ عَمْرٍو - وَكَانَ وَالِيًا عَلَى الْبَصْرَةِ - الْحَسَنَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلَقَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ رِيَاشِهَا، وَبَهْجَتِهَا، وَزِينَتِهَا، لِعِبَادِهِ، وَقَالَ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١)، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)، فَقَالَ الْحَسَنُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ! اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ، وَإِيَّاكَ وَالْأَمَانِيَّ الَّتِي تَرَحَّصْتَ فِيهَا؛ فَكَيْفَ لَكَ، إِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ خَيْرًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا، وَلَا مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ بِأَمْنِيَّتِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ دَارَانِ، مَنْ عَمِلَ فِي هَذِهِ، أَذْرَكَ تِلْكَ، وَنَالَ مَا قَدَّرَ لَهُ مِنْهَا، وَمَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ، خَسِرَهُمَا جَمِيعًا، إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ اخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ لِنَفْسِهِ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجَعَلَهُ رَسُولًا إِلَى كَافَّةِ خَلْقِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا مُهِمِّمًا، وَحَدَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا حُدُودًا، وَجَعَلَ لَهُ فِيهَا أَجَلًا، ثُمَّ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣)، وَأَمَرَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِأَمْرِهِ، وَنَهْتَدِيَ بِهَدْيِهِ، وَأَنْ نَسْلُكَ طَرِيقَتَهُ، وَنَعْمَلَ بِسُنَّتِهِ، فَمَا بَلَّغْنَا إِلَيْهِ، فَبَفَضَلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَمَا قَصَرْنَا عَنْهُ، فَعَلِينَا أَنْ نَسْتَعِينَ وَنَسْتَغْفِرَ، فَذَلِكَ بَابُ مَخْرَجِنَا، وَأَمَّا الْآمَانِيُّ، فَلَا خَيْرَ فِيهَا، وَلَا فِي أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَالَ النَّضْرُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدَّرَ عَلَيْنَا مَا شَاءَ، وَإِنَّا لَنُحِبُّ رَبَّنَا.

الفصل السابع

في مكاتبة الخلفاء ومعاملاته مع الأمراء وولاية الأمور

رَوَى عَنْهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَخَذَ عَلَى الْخُلَفَاءِ، وَالْأُمَرَاءِ، وَالْحُكَّامِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ، فَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ مِنْهُمْ، نَجَا، وَمَنْ قَصَرَ، هَلَكَ، أَخَذَ عَلَيْهِمْ: أَلَّا يَتَّبِعُوا الْهَوَى، وَلَا يَخْشُوا النَّاسَ، وَيَخْشَوْهُ، وَأَلَّا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ الْمُلُوكَ قَالَ: لَا تَنْظُرُوا إِلَى شَرَفِ عَيْشِهِمْ، وَلِيْنِ رِيَاشِهِمْ، وَلَكِنْ انْظُرُوا إِلَى سُرْعَةِ طَعْنِهِمْ، وَسُوءِ مُنْقَلَبِهِمْ.

وَاتَّصَلَ بِهِ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ الْخَسِيسَ، وَيَلْبَسُ الدَّنِيَّ مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ: يَا وَيْهَ: عَلَامَ جُبِّي لَهُ مِنَ الْخَرَاجِ، وَمَلَكَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بُخْلًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَرَّمَ مِنْ دُنْيَاةٍ مَا لِأَجَلِهِ تَرَكَ دِينَهُ.

وَكَانَ يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا، جَعَلَ أُمَرَاءَهُمْ سَفَهَاءَهُمْ، وَفَيْتَهُمْ عِنْدَ بُخْلَانِهِمْ.

وَكَانَ يَقُولُ: لَقَدْ حَدَّثْتُ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ أُمَرَاءُ فَجَرَةٌ، وَوُزَرَاءُ

(١) سورة الأعراف: ٣١.

(٢) سورة الأعراف: ٣٢.

(٣) سورة الممتحنة: ٦.

فَقَالَ الْحَسَنُ: لَقَدْ قَالَ ذَلِكَ قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١). فَجَعَلَ سَبْحَانَهُ اتِّبَاعَهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَمًا لِلْمَحَبَّةِ، وَأَكْذَبَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ، فَاتَّبَعَ اللَّهُ يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فِي نَفْسِكَ، وَابْتَغِ اللَّهَ! لَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا، كَانُوا قَبْلَكَ فِي مَكَانِكَ يَعْلَمُونَ الْمَنَابِرَ، وَتَهَيَّؤُا لَهُمُ الْمَرَائِبُ، وَيَجْرُونَ الدُّيُولَ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ، يَبْنُونَ الْمَدَرَ، وَيُؤْثِرُونَ الْأَثَرَ، وَيَنْفَاقُونَ فِي الثِّيَابِ، أَخْرَجُوا مِنْ سُلْطَانِهِمْ، وَسَلَّبُوا مَا جَمَعُوا مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَقَدِمُوا عَلَى رَبِّهِمْ، فَزَلُّوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَالْوَيْلُ لَهُمْ، وَالْوَيْلُ لَهُمْ يَوْمَ الشَّعَابِ: وَيَا وَيَحْهُمْ ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الزُّرَّ مِنَ الْأَنْجَبِ﴾ (٢) وَأَيُّهُ (٣) وَصَحْبِهِ (٤) وَيَبْنِي (٥) لِكُلِّ أَمْرٍ يَنْتَهِي يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَنْبِي (٦).

وَقِيلَ: دَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ! أَيْدَكَ اللَّهُ، إِنَّ أَخَاكَ مِنْ نَصْحِكَ فِي دِينِكَ، وَيَصْرُكَ عُيُونُكَ، وَهَذَاكَ إِلَى مَرَاشِدِكَ، وَإِنَّ عَدُوَّكَ مِنْ غَرِّكَ وَمَنَّاكَ.

أَيُّهَا الْأَمِيرُ! اتَّقِ اللَّهَ؛ فَإِنَّكَ أَصْبَحْتَ مُخَالِفًا لِلْقَوْمِ فِي الْهَدْيِ وَالسَّيْرِ، وَالْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ تَتَمَنَّى الْأَمَانِيَّ، فَتَرْجِعْ فِي طَلَبِ الْعُذْرِ.

وَالنَّاسُ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - طَالِبَانِ: طَالِبُ دُنْيَا، وَطَالِبُ آخِرَةٍ.

وَإِمْ لَهِ! لَقَدْ أَذْرَكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ وَاسْتَرَاحَ، وَتَعَبَ الْآخِرُ وَحَرِمَ، فَاحْذَرِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ تَسْعَى لِطَلَبِ الْفَانِي، وَتَتْرِكَ الْبَاقِي، فَتَكُونَ مِنَ النَّادِمِينَ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ حَكِيمًا قَالَ:

أَبْنِ الْمُلُوكَ الَّتِي عَنْ حَظِّهَا عَفَلْتَ حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ الْمَوْتِ سَاقِيهَا نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْخَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ (١)، وَمِنْ الضَّلَالَةِ بَعْدَ الْهَدْيِ.

لَقَدْ حَدَّثْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: كَفَى الْمَرْءَ جُنَايَةً أَنْ يَكُونَ لِلْخَوْنَةِ أَمِينًا، وَعَلَى أَعْمَالِهِمْ مُعِينًا.

وَقِيلَ لِآخَرَ فَقِيرٍ: أَلَا نَذْهَبُ إِلَى السَّلَاطِينِ، فَتُصِيبَ مِنْ خَيْرِهِمْ؟ فَقَالَ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِمَّا يَكْرَهُ تَعَالَى، لِأَنَّ أَمُوتَ مُؤْمِنًا مَهْزُولًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ مُنَافِقًا سَمِينًا.

وَأَحْضَرَ ابْنُ هُبَيْرَةَ (٢) الْحَسَنَ وَالشَّعْبِيَّ، فَقَالَ لَهُمَا: أَصْلَحَكُمَا اللَّهُ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ يَكْتَبُ إِلَيَّ كُتُبًا، أَعْرِفُ فِي تَنْبِيذِهَا الْهَلَكَةَ، فَأَخَافُ إِنْ أَطَعْتُهُ غَضَبَ اللَّهُ، وَإِنْ عَصَيْتُهُ، لَمْ أَمِنْ سَطَوْتَهُ، فَمَا تَرَيَانِ لِي؟ فَقَالَ الْحَسَنُ لِلشَّعْبِيِّ: يَا أَبَا عَمْرٍو! أَجِبِ الْأَمِيرَ، فَفَرَّقَ لَهُ فِي الْقَوْلِ، وَانْحَطَّ فِي هَوَى ابْنِ هُبَيْرَةَ.

وَكَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ لَا يَسْتَشْفِي دُونَ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الْحَسَنِ، فَقَالَ: قُلْ مَا عِنْدَكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَقَالَ الْحَسَنُ: أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ الشَّعْبِيُّ؟ فَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَقُولُ: - وَاللَّهِ - يَوْشُكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، فَظُّ غَلِيظٌ لَا يَعْصِي اللَّهَ مَا أَمَرَهُ، فَيُخْرِجُكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ، إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ، فَلَا يُغْنِي عَنْكَ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ شَيْئًا، فَبَكَى عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ

(١) الْخَوْرُ: النِّقْصَانُ وَالرُّجُوعُ، الْكُورُ: الزِّيَادَةُ. انْظُرْ: «النَّاسُ الْعَرَبُ» (٥/١٥٥).

(٢) عَمْرُ بْنُ هُبَيْرَةَ بْنِ عَمَارَةَ بْنِ سُكَيْنٍ: الْأَمِيرُ أَبُو مَثْنَى الْفَزَارِيُّ الشَّامِيُّ، أَمِيرُ الْعَرَابِيِّينَ، وَوَلَدَهُ أَمِيرُهَا يَزِيدُ، تُرْفَى سَنَةً سَبْعَ وَمِئَةَ تَفْرِييَةً.

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ٣١.

(٢) سُورَةُ عَبَسَ: ٣٤-٣٧.

بكاءً شديداً، وأجزل جائزة الحسن، وقصّر في جائزة الشعبي.

ثم خرج الشعبي إلى المسجد، فلما اجتمع أهل مجلسه، قال: أيها الناس! من استطاع منكم أن يؤثّر الله - عز وجل - على خلقه، فليعمل! إن الأمير ابن هبيرة أرسل إلي وإلى الحسن، فوالذي نفسي بيده! ما علم الحسن شيئاً جهلته، ولكن راعيت ابن هبيرة، وأردت رضاه، وقصّرت في قلبي له، فأقصاني الله وأبعدني، وكان الحسن مع الله - عز وجل -، فقرّبه وأدناه، وسخر ابن هبيرة، فأثره وحباه.

وقيل: خرج الحسن يوماً من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقرّاء على باب، فقال: ما جاء بكم هاهنا؟ لا كثر الله جمعكم، تريدون الدخول على هؤلاء الجريبي! فوالله ما مخالطتهم مخالطة الأبرار، ولا مجالسهم مجالس الأخيار، تفرّقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، ولا كثر الله في المسلمين مثلكم، حدّوتم نعالكم، وشمّرتم ثيابكم، وجرّتم رؤوسكم، وكحلّتم أعينكم، فكنتم شرّ عصابة، خلّقوا الشوارب للطمع، فضحّتم القرّاء، لا جمع الله شملكم.

أما - والله - لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، فأبعد الله من أبعد، وما أحسب غيركم، ثم انصرف مغضباً.

وروي أن الحجاج^(١) بنى داراً بواسط، وأحضّر الحسن ليراها، فلما دخلها، قال: الحمد لله، إن الملوّك ليروّون لأنفسهم عزّاً، وإنّا لنرى فيهم

كل يوم عيّراً، يعبّد الله لهم إلى قصر فيسيده، وإلى فرش فينجدّه، وإلى ملابس ومراكب فيحسنّها، ثم تحفّ به ذئاب طمع، وفرائس نار، وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت. فقد رأينا أيّها المغرور! فكان ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السموات، فقد مقتوك، وأما أهل الأرض، فقد لعنوك، بنيت دار الفناء، وخربت دار البقاء، وعزّرت في دار العرور ليتدلّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينّه للناس ولا يكتُمونه، وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، فقال: يشتمني عبيد أهل البصرة وأنتم حُضور، فلا تنكروا! ثم أمر بإحضار الحسن، فجاء وهو يحرك شفّتيه بما لم يسمع، حتى دخل على الحجاج، فقال: يا أبا سعيد! أما كان لإمارتي عليك حقّ حين قلت ما قلت؟ فقال: يرحمك الله أيّها الأمير! إن من خوّفك حتى تبلغ أمّك أرقّ بك، وأحبّ فيك ممّن أمّك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق إلى وهملك، والأمران بيدك: العفو والعقوبة، فافعل الأولى بك، وعلى الله فتوكل، وهو حسبنا ونعم الوكيل. فاستحيا الحجاج منه، واعتذر إليه، فأكرمه وحباه.

وقيل: جاء رجل من الشريط كان على هنا إلى الحسن، فقال: عزّمت على ترك النيذ، فقال الحسن: هلاً بدأت بترك ما هو أولى بك، أخّر التوبة من النيذ حتى يكون هو شرّ عملك، وحيثنذ فتب منه.

وقيل: سمع الحسن رجلاً من أصحاب الحجاج يذكر عليّاً - عليه السلام - بسوء، فقال: لقد استوجبها، فقال الرجل: النار يا أبا سعيد؟ فقال: نعم! وبس المصير، قال: فهل توبة عافاك الله؟ فقال الحسن:

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الشافعي، أبو محمد، قائد وخطيب مشهور، ولد ونشأ في الطائف، ولأه عبد الملك بن مروان إمارة العراق، فبث له الولاية عشرين سنة توفي بواسط سنة (٩٥ هـ).

تَكَلَّمَ أَثْلَكَ، وَهَلْ لَكَ إِنْ لَمْ تَتَّبِعْ بِعَذَابِ اللَّهِ مِنْ طَاقَةٍ؟ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

قيل: لَمَّا وَلِيَ ابْنُ أَرْطَاة^(١) البصرة، عَزَمَ عَلَى أَنْ يُؤَلِّيَ الْحَسَنَ
الْقَضَاءَ، فَهَرَبَ الْحَسَنُ وَاسْتَرَى، وَكُتِبَ إِلَيْهِ: أَمَا بَعْدُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ! فَإِنَّ
الْكَارَةَ لِلْأَمْرِ غَيْرُ جَدِيرٍ بِقَضَاءِ الْوَاجِبِ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَامِلَ لِلْعَمَلِ بِغَيْرِ نِيَّةٍ
حَقِيقٍ إِلَّا يُعَانَ عَلَيْهِ، وَلَكَ فِي الْمُخْتَارِينَ لِلْأَمْرِ الَّذِي دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ كِفَايَةٌ
وَقَنَاعَةٌ، وَقَصْدُكَ إِيَّاهُمْ، وَتَعْوِيلُكَ عَلَيْهِمْ أَوْلَى بِكَ، وَأَصُونُ لِعَمَلِكَ، وَإِنَّهُ
لَا خَيْرَ فِي الاسْتِعَانَةِ بِمَنْ لَا يَرَى أَنْ الْعَمَلَ الَّذِي يُدْعَى إِلَيْهِ وَاجِبٌ عَلَيْهِ،
وَلَا فَرَضٌ لَزِمٌ لَهُ، فَعَافِنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ عَافَاكَ اللَّهُ، وَأَحْسِنْ إِلَيَّ بِتَرْكِ
التَّعَرُّضِ لِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. فَأَعْفَاهُ، وَأَكْرَمَهُ،
وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَبْتَلِيَهُ بِمَا يَكْرَهُهُ.

رُويَ أَنَّ عَمْرُ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - كُتِبَ إِلَى الْحَسَنِ: اكْتُبْ
إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِمَوْعِظَةٍ وَأَوْجِزْ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ:

أَمَا بَعْدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَكَأَنَّ الَّذِي كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ الَّذِي هُوَ
كَائِنْ قَدْ نَزَلَ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الصَّبْرَ وَإِنْ أَذَاقَكَ تَعَجِيلَ مَرَارَتِهِ،

فَلَنَعْمَ مَا أَعْقَبَكَ مِنْ وَلِيٍّ حَلَاوَتِهِ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْفَائِزَ مَنْ
حَرَصَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ، وَفَارَّ بِالرَّحْمَةِ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ.

وقيل: كُتِبَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْحَسَنِ: اكْتُبْ إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِدَمِ
الدُّنْيَا، فَكُتِبَ إِلَيْهِ:

أَمَا بَعْدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ظُلْمٍ وَانْتِقَالٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ
إِقَامَةٍ عَلَى حَالٍ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْهَا آدَمُ عَقُوبَةً، فَاحْذَرُهَا؛ فَإِنَّ الرَّاعِبَ فِيهَا
تَارِكٌ لَهَا، وَالْغَنِيُّ فِيهَا فَقِيرٌ، وَالسَّعِيدُ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا؛ إِنَّهَا إِذَا
اخْتَبَرَهَا اللَّيْبُ الْحَادِقُ، وَجَدَهَا تُدَلُّ مَنْ أَعَزَّهَا، وَتَفَرِّقُ مَنْ جَمَعَهَا، فَهِيَ
كَالْشَّمِّ بِأَكْلِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ، وَبِرَغَبٍ فِيهِ مَنْ يَجْهَلُهُ، وَفِيهِ - وَاللَّهِ - حَقُّهُ،
فَكُنْ فِيهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمُدَاوِي جِرَاحَهُ، يَحْتَمِي قَلِيلًا؛ مَخَافَةَ
مَا يَكْرَهُ طَوِيلًا، الصَّبْرُ عَلَى لَأْوَائِهَا أَيْسَرُ مِنْ احْتِمَالِ بِلَائِهَا، وَاللَّيْبُ مَنْ
حَذَرَهَا وَلَمْ يَغْتَرَّ بِهَا؛ فَإِنَّهَا غَدَارَةٌ حَمَالَةٌ خَدَّاعَةٌ، قَدْ تَعَرَّضَتْ بِأَمَالِهَا،
وَتَزَيَّنَتْ لِخُطْبَائِهَا، فَهِيَ كَالْعُرُوسِ، الْعَيُونُ إِلَيْهَا نَازِرَةٌ، وَالْقُلُوبُ عَلَيْهَا
وَالِهَةٌ، وَهِيَ - وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ - لِأَزْوَاجِهَا قَاتِلَةٌ، فَاتَّقِ أَيُّهَا
الْأَمِيرُ صَرَغَتَهَا، وَاحْذَرْ غَيْرَهَا؛ فَالرَّحَاءُ فِيهَا مَوْصُولٌ بِالشَّدَةِ وَالْبَلَاءِ،
وَالْبَقَاءُ مُؤَدَّةٌ إِلَى الْهَلَكَةِ وَالْفَنَاءِ.

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ، وَأَمَالُهَا بَاطِلَةٌ، وَصَفَرُهَا
كَذَرٌ، وَعَيْشُهَا نَكْدٌ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ، وَالْمُتَمَسِّكُ بِهَا هَالِكٌ غَرِيقٌ، وَالْفِطْنُ
الْلَيْبُ مَنْ خَافَ مَا خَوَّفَهُ اللَّهُ، وَحَذَرُ مَا حَذَرَهُ، وَقَدَّمَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى
دَارِ الْبَقَاءِ، فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ.

الدُّنْيَا - وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حُلْمٌ، وَهِيَ دَارُ عَقُوبَةٍ، لَهَا يَجْمَعُ مَنْ
لَا عَقْلَ لَهُ، وَبِهَا يَغْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا

(١) ابْنُ أَرْطَاة: حُجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ بْنِ نُورٍ بْنِ هُبَيْرَةَ بْنِ شَرَاهِيلَ بْنِ كَعْبٍ، مَفْنِي الْكُوفَةِ مَعَ
الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَلَدَ فِي حَيَاةِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَلِيَ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ جَانِثَ
الْحَدِيثِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ إِرْسَالٍ، وَتَدْنِيسٍ، مَاتَ فِي الرَّثِيِّ سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
وَمِثَّةٍ. «سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» (٧/ ٦٨-٧٥).

(٢) هُوَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِي بْنِ أُمِيَّةٍ، الْإِمَامُ الْحَافِظُ
الْعَلَامَةُ، الْمَجْتَهِدُ، الزَّاهِدُ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَلِيَ إِمْرَةَ
الْمَدِينَةِ لِلْوَلِيدِ، وَوَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ. مَاتَ فِي رَجَبِ سَنَةِ إِحْدَى وَمِثَّةٍ وَلَهُ أَرْبَعُونَ
سَنَةً، وَكَانَتْ مَدَّةُ خِلَافَتِهِ مِثَّتَيْنِ وَنِصْفَ السَّنَةِ.

كالمُدَاوِي جِرَاحِهِ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ؛ لِمَا يَرْجُو مِنَ الْعَافِيَةِ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ.

وَالدُّنْيَا - وَايُمُ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حُلُمٌ، وَالْآخِرَةُ يَقَظَةٌ، وَالْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ، وَالْعِبَادُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ، وَإِنِّي قَائِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ:

وَأِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجُّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ - وَالْأَفْئَانِي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَقَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ الْحَسَنَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُوقِظُنَا مِنَ الرَّقَدَةِ، وَيُنَبِّهُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ، وَلِلَّهِ هَرٌّ مِنْ مُشْفِقٍ مَا أَنْصَحَهُ! وَوَاعِظٍ مَا أَصْدَقَهُ وَأَفْصَحَهُ!

وَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: وَصَلَتْ مَوَاعِظُكَ النَّافِعَةُ، فَأَشْفَيْتَ بِهَا، وَلَقَدْ وَصَفْتَ الدُّنْيَا بِصِفَتِهَا، وَالْعَاقِلُ مَنْ كَانَ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ، فَكَأَنَّ كُلَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَدْ مَاتَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُ إِلَى الْحَسَنِ قَالَ: اللَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَائِلٍ حَقًّا، وَقَائِلٍ وَغَطًّا، لَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِوَلَايَتِهِ الْمِنَّةَ، وَرَحِمَ بِسُلْطَانِهِ الْأُمَّةَ، وَجَعَلَهُ بَرَكَةً وَرَحْمَةً.

وَكُتِبَ إِلَيْهِ:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْهَوَلَ الْأَعْظَمَ، وَالْأَمْرَ الْمَطْلُوبَ، أَمَامَكَ، وَلَا بُدَّ مِنْ مُشَاهَدَتِكَ ذَلِكَ، إِمَّا بِنَجَاةٍ أَوْ بِعُطْبٍ.

وَكُتِبَ إِلَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -: احْذَرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَكُونَ فِيهَا

مَلَكَكَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ سِبَاهِهِ دَعْبًا أَسْنَنَهُ مَرَلَاهُ، وَاسْتَحْفَظَهُ مَالَهُ وَعِيَالَهُ، فَهَذَرِ الْمَالَ، وَسَرَّحِ الْعِيَالَ، وَأَفْقَرِ أَهْلَهُ، وَأَتْلَفْ مَالَهُ.

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ ثَنَاهُ - أَمَرَ أَنْبِيََاءَهُ أَنْ يَرْجُرُوا عِبَادَهُ عَنِ الْخَبَائِثِ، وَيَنْهَوْهُمْ عَنِ الْفَوَاحِشِ، فَكَثُرَتْ بِهِمْ إِذَا مَنْ قَبِلَهُمْ مِنْ جَمِيلِ الْفَيْضِ لَهُمْ.

اذْكُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَلَّةَ أَشْيَاعِكَ عِنْدَ رَبِّكَ، وَأَنْصَارَكَ عَلَيْهِ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَتَزَوَّدْ لِيَوْمِ الْفَرَعِ الْأَكْبَرِ.

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَكَ مَتْرَلًا غَيْرَ مَتْرَلِكَ الْبَدِيِّ أَنْتَ فِيهِ، وَبِهِ يَطُولُ مُقَامُكَ، وَعَنْهُ يَفَارِقُكَ أَحِبَّاءُكَ، يُفْقُونَكَ فِيهِ وَحِيدًا، وَيُسْلِمُونَكَ إِلَيْهِ فَرِيدًا، فَتَزَوَّدْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَوْمِ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، وَأَذْكُرْ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، يَوْمَ تَكُونُ الْأَسْرَارُ ظَاهِرَةً، وَقَدْ نُشِرَ الْكِتَابُ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، فَاعْمَلِ الْآنَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ، وَانْقِطَاعِ الْعَمَلِ، وَاحْذَرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَحْكَمَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ، أَوْ تَسْلُكَ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ، وَلَا تُسَلِّطِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مَوْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ وَلَّى ظَالِمًا، أَوْ أَعَانَهُ، فَقَدْ وَلَّى الْإِسْلَامَ ظَهْرَهُ»، فَاتَّقِ اللَّهَ أَنْ تَبُوءَ بِأَوْزَارِكَ وَأَوْزَارَ مَنْ أَوْزَارَكَ، وَتَحْمَلَ أَثْقَالَكَ وَأَثْقَالَ مَنْ أَثْقَالَكَ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ قَوْمٌ يَنْتَعِمُونَ بِبُيُوتِكَ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ بِذَهَابِ طَيِّبَاتِكَ، وَلَا تَنْتَظِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَدَرِكَ الْيَوْمَ، وَانْتَظِرْ إِلَى قَدَرِكَ غَدًا، وَأَنْتَ سَاسُورٌ فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، فِي مَجْمَعٍ مِنَ السَّلَاطِكَةِ وَالرُّسُلِ، وَقَدْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ.

يا أمير المؤمنين! وإن لم أبلغ في موعظتي ما بلغ أولو النهي، فلم ألك شفقة، ولا أدخرت عنك نصيحة، ولا قصرت في موعظتك، فأنزل كتابي إليك منزلة، وتفرغ لسماعه فراغ من يرجو الانتفاع به، ولتتهن عندك مرارة الدواء؛ لما فرجو من عاقبة الشفاء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب إليه: أما بعد: يا أمير المؤمنين! خف الله ما خوفاك، يكتفك خوفاك من الناس، وخذ مما في يدك لما بين يديك تسعد، فكأن قد، وعند الموت يأتيك اليقين.

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: اكتب إلي أبا سعيد بصحة الإمام العادل، وأين هو؟ وأنى للأمة به؟

وكتب الحسن إليه: أما بعد:

يا أمير المؤمنين! أرتعك الله في رياض نعمته، ونزهك في حدائق صنيته.

فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - جعل الإمام العادل قواماً لكل مائل، وقضداً لكل جائر، وصلاحاً لكل فاسد، وقوة لكل ضعيف، ونصفاً لكل مظلوم، ومفرعاً لكل ملهوف.

والإمام العادل كالراعي الشفيق، والحازم الرفيق، الذي يرتاد لغنمه أطيب المراعي، ويدودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من الشباع، ويكفيها أذى الحر والقر.

والإمام العادل كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلسهم كباراً، ويكسبهم في حياتهم، ويدخر لهم بعد وفاته.

وكالألم الشفيقة، البرة الرفيعة، حملت ولدها كرهاً، ووضعت كرهاً،

تشهد إذا شهد، وسكن إذا سكن، ترضع تارة، وتطعمه أخرى، تفرح بعاقبته، وتهتم بشكايته.

والإمام العادل كوصي اليتامى، وخازن المساكين؛ يربي صغيرهم، ويؤمن كبيرهم.

والإمام العادل كالقلب بين الجوارح، تصلح بصلاح الجملة، وتفسد بفساده.

والإمام العادل هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله فيسمعهم، ويبصر آثار نعمته ربه فيبصرهم، وينقاد إلى أوامر الله تعالى ويفودهم.

وأرجو يا أمير المؤمنين أن تكون هو إن شاء الله.

ولولا أن الله افترض نصيحتك، لكنت؛ لما مَنَّكَ الله من هداية، ورزقك من توفيق وتسييد، في غنى عن موعظتك، ولكن الله - جل ثناؤه - أخذ ميثاقه على العلماء ليبيته للناس ولا يكتُمونه.

* * *

ما رُوي عن الخروج على الأمراء

قال حُمَيْدُ خَادِمِ الْحَسَنِ: كُنْتُ عِنْدَ الْحَسَنِ يَوْمًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، وَخَلَا بِهِ، وَشَاوَرَهُ فِي الْخُرُوجِ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى الْحِجَااجِ، فَقَالَ: أَتَيْتُ اللَّهَ يَا بْنَ أَخِي، وَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ، وَغَيْرُ جَائِزٍ لَكَ، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! لَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُكَ سَيِّئَ الْقَوْلِ فِي الْحِجَااجِ، غَيْرَ رَاضٍ عَنْ سِيرَتِهِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا الْحَسَنِ! وَايْمُ اللَّهِ! إِنِّي الْيَوْمَ لَأَسْوَأُ فِيهِ رَأْيًا، وَأَكْثَرَ عَلَيْهِ عَثْبًا، وَأَشَدُّ ذَمًّا، وَلَكِنْ لِنَعْلَمَ - عَافَاكَ اللَّهُ - أَنَّ جَوَرَ الْمُلُوكِ نِقْمَةٌ مِنَ نِقَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنِقَمُ اللَّهِ لَا تُلَاقَى بِالسَّيُوفِ، وَإِنَّمَا تُنْقَى، وَتُسْتَفْعَى بِالْإِعْصَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالْإِفْلَاحِ عَنِ الذُّنُوبِ. إِنَّ نِقَمَ اللَّهِ مَتَى لُقِيتَ بِالسَّيُوفِ، كَانَتْ هِيَ أَقْطَعُ، وَلَقَدْ حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ أَنَّ الْحِجَااجَ كَانَ يَقُولُ:

اعْلَمُوا أَنْكُمْ كُلُّمَا أَحْدَثْتُمْ ذَنْبًا، أَحْدَثَ اللَّهُ مِنْ سُلْطَانِكُمْ عُقُوبَةً.

ولقد حَدَّثْتُ أَنَّ قَائِلًا قَالَ لِلْحِجَااجِ: إِنَّكَ تَفْعَلُ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: أَجَلُ، إِنَّمَا أَنَا نِقْمَةٌ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ؛ لَمَّا أَحْدَثُوا فِي دِينِهِمْ مَا أَحْدَثُوا، وَتَرَكَوا مِنْ شَرَائِعِ نَبِيِّهِمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا تَرَكَوا.

وقيل: سَمِعَ الْحَسَنُ رَجُلًا يَدْعُو عَلَى الْحِجَااجِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - إِنَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَتَيْتُمْ، إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ عَزَلَ الْحِجَااجُ، أَوْ مَاتَ، أَنْ يَلِيَكُمُ الْفِرْدَوْهَ وَالْخَنْزِيرُ؛ فَقَدْ رُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَمَّا لَكُمْ

كَأَعْمَالِكُمْ، وَكَمَا تَذَرُونِ إِيَّائِي» (١).

ولقد بلغني: أَنَّ رَجُلًا كَتَبَ إِلَى بَعْضِ الصَّالِحِينَ يَشْكُو إِلَيْهِ جَوَرَ الْعَمَالِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: يَا أَخِي! وَصَلَنِي كِتَابُكَ تَذَكُّرُ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ جَوْرِ الْعَمَالِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَمِلَ بِالْمَعْصِيَةِ أَنْ يُنَكِّرَ الْعُقُوبَةَ، وَمَا أَظُنُّ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ إِلَّا مِنْ سُؤْمِ الذُّنُوبِ، وَالسَّلَامِ.

ولقد بلغني أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خَطَبَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - يَقُولُ: أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، مَا لِكَ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدَيَّ، فَمَنْ أَطَاعَنِي مِنْكُمْ، جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي، جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا قُلُوبَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تُوبُوا إِلَيَّ أُعْظِفْهُمْ عَلَيْكُمْ».

وقال الْأَشْعَثُ: كُنْتُ عِنْدَ الْحَسَنِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مُصَفَّرٌ كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنِ الْوَلَاةِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي أَيْمَنِنَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: فَسَكَّتْ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِيهِمْ، وَهُمْ يَكُونُ مِنْ أُمُورِنَا خَمْسًا: الْجُمُعَةُ، وَالْجُمَاعَةُ، وَالْفَيْءُ، وَالشُّعُورُ، وَالْحُدُودُ؟ وَاللَّهُ مَا يَسْتَقِيمُ الدِّينُ

(١) روى الجزء الأخير منه الدِّيلِمِيُّ من طريق يحيى بن هاشم مرفوعاً. والبيهقي في «الشعب» من طريق يحيى بن هاشم مرسلاً، ويحيى أَنَّهُم بِالْوَضْعِ. وقد رَوَاهُ الْقُضَاعِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» مِنْ طَرِيقِ أَحْمَدَ بْنِ عَثْمَانَ الْكُرْمَانِيِّ. وَأَشَارَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكَشَافِ» (٢٥/٤) إِلَى أَنَّ فِي سَنَدِهِ مَجَاهِيلٌ. وَجَاءَ بِالنُّقْطَةِ: «كَمَا تَكُونُونَ، كَذَلِكَ يَزِرُ عَلَيْكُمْ» انْقَرَأَ: «مَشَاكَاةُ الْمَصَابِيحِ» بِرَفْمٍ (٣٧١٧). «السُّلْطَةُ الضَّعِيفَةُ» لِلْأَلْبَانِيِّ رَفْمٌ (٢٣٠).

إِلَّا بِهِمْ، وَإِنْ جَارُوا، وَإِنْ ظَلَمُوا، وَاللَّهُ لَمَّا يُضْلِحِ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْسِدُونَ، وَاللَّهُ إِنْ طَاعَتَهُمْ لَغِيظَةٌ، وَإِنْ فُرْقَتَهُمْ لُكُفْرٌ.

قال: فقال الرجل: يا أبا سعيد! والله إني لذنو مال كثير، وما يسُرُّني أَنْ يَكُونَ لي أمثاله، وأني لم أسمع منك الذي سمعتُ، فجزاك الله عن الدين وأهله خيراً.

وسُئِلَ الحسنُ عن الحجاج، فقال: يتلو كتابَ الله، ويعِظُ وعِظَ الأبرارِ، ويُطْعِمُ الطَّعَامَ، ويؤثِرُ الصَّدَقَ، وَيَبْطِشُ بَطْشَ الْجَبَّارِينَ.

قالوا: فما ترى في القيامِ عليه؟ فقال: اتَّقُوا اللَّهَ، وتُوبُوا إِلَيْهِ يَكْفِكُمْ جَوْرَهُ، واعْلَمُوا أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ حَاجَجِينَ كَثِيرًا.

وكان يقول: هؤلاء - يعني الملوكة - وَإِنْ رَقَصَتْ بِهِمُ الْهَمَالِيجُ^(١)، وَوَطِئَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَعْصِيَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الْحَقَّ أَلْزَمَنَا طَاعَتَهُمْ، وَمَنْعَنَا مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَسْتَدْفِعَ بِالتَّوْبَةِ وَالِدَعَا، مَضَرَّتَهُمْ، فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا، كَرِمَ ذَلِكَ، وَعَمِلَ بِهِ، وَلَمْ يُخَالِفْهُ.

* * *

الفصل الثامن

فيما رُوِيَ له من المواعِظِ والحِكَمِ في سائر الأشياءِ

كان - رحمه الله - يقول: الواعِظُ مَنْ وَعَظَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، لا بقوله. وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمرَ بشيءٍ، بدأ بنفسه ففعله، وإذا أراد أن ينهى عن شيءٍ، انتهى عنه.

وكان يقول: اتَّصل بي أَنْ بعضَ الصالحينَ جعلَ على نفسه ألا يراه الله ضاحِكاً حتى يَعْلَمَ أَيُّ الدَّارَيْنِ دارُهُ: الْجَنَّةُ، أم النارُ؟ فيقولُ الحسنُ - رحمه الله - لقد عزمَ - رحمه الله - فَوَفَى بِعَزْمِهِ، وما رُئِيَ ضاحِكاً حتى لَحِقَ بالله - عزَّ وجلَّ -.

وقيل: مرَّ الحسنُ برجلٍ يَضْحَكُ، فقال: يابنَ أخي! جُرِثَ الصراطُ؟ فقال: لا، فقال: فهل علمتَ إلى الجنةِ تصيرُ أم إلى النارِ؟ فقال: لا، فقال: ففيمَ الضَّحِكُ - عافاك الله - والأمرُ هو؟! قيل: فما رُئِيَ الرجلُ ضاحِكاً حتى ماتَ.

ورأى الحسنُ يوماً يتضاحكونَ، ويتغامزونَ، ويتدافعونَ بعدَ انصرافِهِمْ يومَ الفِطْرِ من صلاةِ النَّجْرِ، فقال: يا قوم! إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانُهُ جعلَ شهرَ رمضانَ مِضْماراً لِعِبَادِهِ، يَسْتَبِقُونَ الطَّاعَةَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي

(١) فارسي معرب: فرع من الدواب.

الأعمال ليفوزوا بدخول جَنَّتِهِ، فسبق أقوامٌ ففازوا، وقصُرَ آخرون فخابوا،
والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ للضاحِكِ في اليومِ الذي رِبِحَ فيه المُخْسِنون، وخَسِرَ
المُتَبَلِّغون.

أما - والله - لو كُشِفَ الغِطاءُ، لَشِغِلَ مُخْسِنٌ بإحسانِهِ، ومُسيءٌ
بإساءَتِهِ، عَنْ تَجْدِيدِ ثَوْبٍ، وتَرْجِيلِ شَعْرٍ.

فإن كنتم - وَفَقَكُمُ اللهُ - قد تَقَرَّرَ عندكم أَنَّ سَعْيَكُمْ قد قُبِلَ، وعَمَلُكُمْ
الصالح قد رُفِعَ، فما هذا فِعْلُ الشاكِرِينَ! وإن كنتم لم تَتَيَقَّنُوا ذلك، فما
هذا فِعْلُ الخائفِينَ!

وكان يقول: ابن آدم! أَقَلِّلِ الضَّحِكَ؛ فإن كثرة الضحك تُمِيتُ القلبَ،
وتُزِيلُ البهجةَ، وتُسْقِطُ المروءةَ، وتُزَيِّرُ بذِي الحالِ.

وكان يقول: رُويَ أَنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - أوحى إلى عيسى - عليه
السلام -: يا عيسى! اِكْحَلْ عَيْنَيْكَ بالبكاءِ إذا رأيتَ الغافلينَ يَضْحَكُونَ.

وعاد الحسنُ عليلاً، فوافقه وهو في الموتِ، ورأى تَقَلُّبَهُ وشِدَّةَ ما نزلَ
به، فلمَّا رَجَعَ إلى دارِهِ، قدَّموا له طَعاماً، فقال: عليكم بطعاميكم
وشرابكم؛ فإنِّي رأيتُ مَصْرَعاً لا بدَّ لي منه، ولا أزالُ أعملُ له حتى ألقاهُ،
وتَأَخَّرَ عَنِ الطعامِ أياماً، حتى لُطِفَ به وأكَل.

وكان يقول: إن اللهَ سُبْحانَهُ لم يجعلْ لأعمالِكُمْ أَجَلاً دُونَ الموتِ،
فعلَيْكُمْ بِالْمُداوِمَةِ؛ فإنه - جلَّ ثَنائُهُ - يقول: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ﴾ (١).

وكان يقول: رأيتُ سَبْعِينَ بَدْرِيّاً، لو رأيتُموهم لَقُلْتُمْ: مَجَانِينُ، ولو

رَأَوْا خِيَارَكُمْ لَقَالُوا: ما هؤلاءُ مِنْ خِلاقٍ، ولو رَأَوْا شِرَارَكُمْ لَقَالُوا: هؤلاءُ
لا يُؤْمِنُونَ بيومِ الحسابِ.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً نَظَرَ فَفَكَرَ، وَفَكَرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ،
وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ.

لقد أبصرَ أقوامٌ ثم لم يَصْبِرُوا، فذهبَ الجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ، فلم يُدْرِكُوا
ما طَلَبُوا، ولا رَجَعُوا إلى ما فَارَقُوا، فِخْسَرُوا الدنيا والآخرةَ، ذلك هو
المُخْسِرُ النُّمِينُ.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي أعْظُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ولا أَصْلَحِكُمْ،
وإني لكثيرُ الإسرافِ على نَفْسي، غيرُ مُخَحِّمٍ لَهَا، ولا حَامِلٍهَا على
الواجبِ في طاعةِ رَبِّهَا، ولو كانَ المؤمنُ لا يَعْظُ أخاهُ إلا بعدَ إحكامِ أمرِ
نَفْسِهِ، لَعُدِمَ الواعِظونَ، وَقَلَّ المَذْكُرونَ، وَلَمَّا وَجَدَ مَنْ يَدْعُو إلى اللهَ - عزَّ
وجلَّ -، وَيُرْغَبُ في طاعَتِهِ، وينهى عن مَعْصِيَتِهِ، ولكن في اجتماعِ أَهْلِ
البصائرِ، ومذاكرةِ المؤمنينَ بعضهم بَعْضاً حياةً لِقُلُوبِ الْمُتَّقِينَ، وادِّكاراً من
العَقْلِ، وأماناً مِنَ السَّيِّئَاتِ، فالزموا - عافاكمُ اللهُ - مجالِسَ الذِّكْرِ، قُرُبَ
كَلِمَةِ مَسْمُوعَةٍ، وَمُخْتَفَرٍ نَافِعٍ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا
إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

أَيُّهَا النَّاسُ! أَصْبَحْتُم - والله - في أَجَلٍ مُنْقُوصٍ، وَعَمَلٍ مُخْصَى
مَخْرُوسٍ، الموتُ فوقَ رؤُوسِكُمْ، والنارُ بينَ أيديكم.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا لِأَحَدِكُمْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، إن نَجَتْ من عَذَابِ اللهِ، لم
يَضُرَّهَا مِنْ هَلَكٍ، وإنْ هَلَكَتْ، لم يَنْفَعُهَا مِنْ نَجَا، فاحذروا - عافاكمُ اللهُ -

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(١) سورة الحجر: ٩٩.

التسوية؛ فإنه أهلك من قبلكم، وإنكم لا تذكرون متى تسبرون؟ ولا إلى أي شيء تصيرون؟ فَرَحِمَ اللهُ عبداً عَمِلَ لِيَوْمِ مَعَادِهِ، قَبْلَ تَمَادٍ زَائِدِهِ.

وقال: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - بَسَطَ لَكُمْ صَحِيفَةً، وَكَلَّ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَلَكَيْنِ كَرِيمَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَنِ الْيَمِينِ، وَالْآخَرُ عَنِ الْيَسَارِ، وَهُوَ تَعَالَى رَقِيبٌ عَلَيْهِمَا، فَإِنْ شَاءَ قَلَّلَ، وَإِنْ شَاءَ كَثَّرَ، إِنَّمَا يُمْلِي كِتَابًا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١)، وَلَقَدْ رُويَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٢)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: نَزَلَتْ - وَاللَّهِ - قَاصِمَةُ الظُّهُورِ^(٣). فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ بِالْجَنَّةِ، فَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُ مَنْ سِوَاهُ؟ فَاعْتَبِرُوا - مَعَشَرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ؛ لَعَلَّكُمْ تَأْمِنُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

وكان يقول: ابن آدم! إِيَّاكَ وَالْأَعْتَزَارَ؛ فَإِنَّكَ لَمْ يَأْتِكَ مِنَ اللَّهِ أَمَانٌ؛ فَإِنَّ الْهَوْنَ الْأَعْظَمَ وَالْأَمَرَ الْأَكْبَرَ أَمَامَكَ، وَإِنَّكَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَسَّدَ فِي قَبْرِكَ مَا قَدَّمْتَ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاعْتَنِمِ الْمُبَادَرَةَ فِي الْمَهَلِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ بِالْعَمَلِ، فَإِنَّكَ مُسْؤُولٌ، فَأَعِدْ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابًا.

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة النساء: ١٢٣.

(٣) رواه ابن جرير في «تفسيره» عند قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، قَالَ: حَدَّثَنِي حِجَابٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِبَاحٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: جَاءَتْ قَاصِمَةُ الظُّهُورِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّمَا هِيَ الْمُصِيبَاتُ فِي الدُّنْيَا». وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْرٍ (٥٥٨/١).

وكان يقول: ابن آدم! إِنْ الْمُؤْمِنَ لَا يُصْبِحُ إِلَّا خَائِفًا، وَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: ذَنْبٍ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَأَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ مُبْتَلِيهِ فِيهِ، فَرَحِمَ اللهُ عبداً فَكَّرَ وَاعْتَبَرَ، وَاسْتَبَصَرَ فَأَبْصَرَ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى.

ابن آدم! إِنَّ اللَّهَ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - أَمَرَ بِالطَّاعَةِ، وَأَعَانَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَجْعَلْ عُذْرًا فِي تَرْكِهَا، وَنَهَى عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَنَفَى عَنْهَا، وَلَمْ يُوسِّعْ لِأَحَدٍ فِي رُكُوبِهَا، وَلَقَدْ رُويَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِآدَمَ: يَا آدَمُ! أَنْتَ الْيَوْمَ عَذْلٌ بَيْنِي وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ، فَمَنْ رَجَعَ خَيْرُهُ عَلَى شَرِّهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنِّي لَا أُعَذِّبُ إِلَّا ظَالِمًا.

وكان يقول: ما في جَهَنَّمَ وادٍ، وَلَا سِلْسِلَةٌ، وَلَا قَيْدٌ، إِلَّا وَاسِمُ صَاحِبِهِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ مَا حُكِمَ فِي الْقَضَاءِ، فَكَيْفَ - أَيُّهَا النَّاسُ - إِنْ اجْتَمَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى عَبْدٍ؟ اتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ، واحذروا مَقْتَهُ؛ فَلَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

وقيل: خَرَجَ الْحَسَنُ يَوْمًا عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْكُمْ أَدْرَكَ مَنْ أَدْرَكْتُ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولَى، وَرَأَى مَنْ رَأَيْتُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، لِأَصْبَحَ مَهْمُومًا، وَأَمْسَى مَغْمُومًا، وَعَلِمَ أَنَّ الْمُجَدِّ مِنْكُمْ كَاللَّاعِبِ، وَالْمَجْتَهِدَ كَالنَّارِكِ، وَلَوْ كُنْتُ رَاضِيًا عَنْ نَفْسِي، لَوَعَطْتُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي غَيْرُ رَاضٍ عَنْهَا، وَلِذَلِكَ أَبْغَضْتُهَا وَأَبْغَضْتُكُمْ.

أيها الناس! إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا هُمْ كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ مُتَنَعِّمِينَ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ مُعَذِّبِينَ، فَهُمْ يَعْمَلُونَ لِمَا رَأَوْا مِنَ النِّعَمِ، وَيَنْتَهَوْنَ عَمَّا خَالَفُوا مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا قُلُوبُهُمْ مَخْرُوجَةً، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، وَجَوَانِحُهُمْ خَفِيفَةٌ، صَبَرُوا الْأَيَّامَ الْقَلِيلَ؛ لِمَا رَجَا فِي الدُّهُورِ الْأَطْوَلَ، أَمَّا اللَّيْلُ، فَقَائِمُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، يَتَضَرَّعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَسْعَوْنَ فِي فَكَائِكَ رِقَابِهِمْ، تَجْرِي مِنَ الْخَشْيَةِ دُمُوعُهُمْ، وَتَخْفُقُ مِنَ الْخَوْفِ قُلُوبُهُمْ، وَأَمَّا النَّهَارُ، فَحُكَمَاءُ عُلَمَاءُ أَتْقِيَاءُ أَخْفِيَاءُ، يَخْشَوْنَ الْجَاهِلَ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ، تَخَالِثُهُمُ مِنَ الْخَشْيَةِ مَرْضَى، وَمَا بِهِمْ مَرَضٌ، وَلَكِنَّهُمْ خَوَّلُوا بِذِكْرِ النَّارِ وَأَهْوَالِهَا، لَهُمْ - وَاللَّهِ - كَانُوا فِيهَا أَحِلَّ لَهُمْ أَزْهَدُ مِنْكُمْ فِيهَا حُرْمٌ عَلَيْكُمْ، وَكَانُوا أَبْصَرَ بِقُلُوبِهِمْ لِذُنُوبِهِمْ مِنْكُمْ لِذُنُوبِكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ، وَلَهُمْ كَانُوا بِحَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَخْوَفُ مِنْكُمْ أَنْ تُعَذِّبُوا عَلَى سَيِّئَاتِكُمْ، ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

وكان يقول: ابن آدم! لا يَعْرِفَنَّكَ مِنْ حَوْلِكَ مِنْ هَذِهِ السَّبَاعِ الْعَادِيَةِ: ابْنُكَ، وَحَلِيلُكَ، وَخَادِمُكَ وَكَالَتُكَ: أَمَّا ابْنُكَ، فَمِثْلُ الْأَسَدِ يَنَازِعُكَ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَمَّا حَلِيلُكَ فَمِثْلُ الْكَلْبَةِ فِي الْهَرِيرِ وَالْبَصْبَصَةِ؛ وَأَمَّا خَادِمُكَ فَمِثْلُ الثَّعْلَبِ فِي الْحِيلَةِ وَالسَّرْقَةِ؛ وَأَمَّا كَالَتُكَ، فَوَاللَّهِ لَيَذُرَّهُمْ يَصِلُ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَوْتِكَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ لَوْ كُنْتَ أَعْتَمَقْتَ رَقَبَةً، فَإِنَّكَ أَنْ تُوقِرَ ظَهْرَكَ بِصَلَاحِهِمْ؛ فَإِنَّمَا لَكَ مِنْهُمْ أَيَّامُكَ الْقَلِيلُ، وَإِذَا وَضَعُوكَ فِي قَبْرِكَ، انصرفوا عَنْكَ، فَصَرَفُوا بَعْدَكَ الثِّيَابَ، وَضَرَبُوا الدُّقُوفَ، وَضَحِكُوا الْقَهْقَهَةَ، وَأَنْتَ تُحَاسِبُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَقَدْ دُمْتَ لِنَفْسِكَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُقْتَصِرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ شُورٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢).

أَيُّهَا النَّاسُ! (إِنْ أَحْبَبْتُمْ يُحَذِّرُهُ صَاحِبُهُ أَمْرًا، فَيَتَّقِيهِ وَيَحْذَرُهُ، فَكَيْفَ مَنْ حَذَّرَهُ رَبُّهُ نَفْسَهُ، وَخَوَّلَهُ عَقُوبَتَهُ؟ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

وكان يقول: أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ رَجُلٍ يَلْهُو وَيَغْفُلُ، وَيَهْزَأُ وَيَلْعَبُ، وَهُوَ يَمْشِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا يَصِيرُ؟ رَوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِهَ لَكُمْ الْعَبَثَ فِي الصَّلَاةِ، وَالرَّفَثَ فِي الصِّيَامِ، وَالضَّحِكَ فِي الْمَقَابِرِ».

وكان يقول: سُبْحَانَ مَنْ أَذَاقَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَلَذَّةِ الْخِدْمَةِ لَهُ مَا عُلِقَ بِمَمْسَمِهِمْ بِذِكْرِهِ، وَشَغَلَ قُلُوبَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ، فَلَا شَيْءَ أَلَذُّ عَنْدهُمْ مِنْ مَنَاجِيهِ، وَلَا أَقْرَبُ لِأَعْيُنِهِمْ مِنْ خِدْمَتِهِ، وَلَا أَخَفُّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا.

وكان يقول: رَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يُورِي النَّارَ، وَيُذْنِي مِنْهَا يَدَهُ وَيَقُولُ: انْظُرْ يَا بَنَ الْخَطَّابِ كَيْفَ صَبْرُكَ عَلَى النَّارِ؟ وَكَيْفَ لَكَ قُدْرَةٌ عَلَى سَخَطِ الْجَبَّارِ؟ ثُمَّ يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ.

ثم يقول الحسن: إِذَا كَانَ هَذَا خَوْفَ عَمْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَهُوَ يَمُنُّ شَهِدَ لَهُ بِالْجَنَّةِ، فَكَيْفَ أَيُّهَا النَّاسُ تَلْبِسُونَ (٢)؟

وكان يقول: ابن آدم! إِنَّمَا أَنْتَ ضَيْفٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ، وَمُسْتَعَارٌ، وَالْعَارِيَةُ لِلَّهِ، اللَّهُ دَرُّ أَقْوَامٍ نَظَرُوا بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ، وَقَدَّمُوا إِلَى دَارِ الْمُسْتَقَرِّ.

(١) سورة الأعراف: ٩٩.

(٢) وفي المطبع: (فأمنون).

(١) سورة المجادلة: ٢١.

(٢) سورة آل عمران: ٢٠.

وكان يقول: ما مَرَّ يومٌ على ابنِ آدمَ إلا قال له: ابنَ آدمَ: إني يومٌ جديدٌ، وعلى ما تَعَمَلُ فيَّ شهيدٌ، إذا ذهبتُ عنكَ لم أرجعُ إليك، فَقَدِّم ما شئتَ تَجِدُهُ بينَ يديكَ، وأخر ما شئتَ فلن يعودَ أبداً إليك.

وكان يقول: إِنَّمَا يَكْرُمُكَ مَنْ يَكْرُمُكَ مادامَ رُوْحُكَ في جَسَدِكَ، لو قد انْتَرَعَ مِنْكَ، لَنَبَذُوكَ وراءَ ظُهُورِهِمْ، ولو تُرِكَتَ بينهم، لَفَرُّوا مِنْكَ فِرَارَهُمْ مِنَ الْأَسَدِ.

وكان يقول: اغْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَدَعُوا أَقْوَالَهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لم يدعُ قولاً إلا جعلَ عليه دليلاً مِنْ عَمَلٍ يُصَدِّقُهُ أو يُكَذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولاً حَسَنًا، فَرَوِّدْهُ بِصَاحِبِهِ، وَإِنْ وَافَقَ مِنْهُ الْقَوْلُ الْعَمَلُ فَنِعْمَ، وَنِعْمَتَ عَيْنٍ، وَإِنْ خَالَفَ الْقَوْلُ الْعَمَلُ، فَإِيَّاكَ أَنْ يَشْتَبَهَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّهَا تُحْدِثُ لِلسَّالِكِينَ.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! إِنَّ لَكَ قولاً وَعَمَلًا، فَعَمَلُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ قَوْلِكَ، وَإِنَّ لَكَ سِريرةً وَعِلَانيةً، فَسِرِّتُكَ أَوْلَى بِكَ مِنْ عِلَانِيَتِكَ، وَإِنَّ لَكَ عاجلاً وعاقبةً، وعاقِبَتُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ عاجِلَتِكَ.

ابنُ آدمَ! إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١)، فاعملوا صالحاً - وفقكم اللهُ - تجدوا عاقبته.

وقيل: بينما الحسنُ يوماً في المسجدِ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ، وبكى بُكَاءَ شديداً، حَتَّى ارْتَعَدَتْ رُكْبَتَاهُ، وَخَفَقَ قَلْبُهُ، ثم قال: لو أَنَّ بِالْقُلُوبِ حَيَاةً، لو أَنَّ بِهَا صَلاَحًا، لَبَكَتْ مِنْ لَيْلَةٍ صَبِيحَتُهَا الْقِيَامَةُ، أَيُّ يَوْمٍ - عِبَادَ اللَّهِ - مَا سَمِعَ الْخَلَائِقُ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْهُ عَوْرَةً بِأَدِيَةٍ، وَلَا عَيْنًا بِأَكْيَةٍ؟!.

وكان يقول: ما أَمَرُورَفْتُ عَيْنٌ بِمَا فِيهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهَا عَلَى النَّارِ، فَإِنْ فَاضَتْ عَلَى خَدَّهَا لَمْ يَزَهَقْ ذَلِكَ الْوَجْهَ فَتَرَ وَلَا ذِلَّةً، وَلَيْسَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا وَلَهُ وَزَنٌ وَثَوَابٌ، إِلَّا الدَّمْعَةُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْفِئُ ما شاءَ اللهُ مِنْ حَرِّ النَّارِ، ولو أَنَّ رَجُلًا بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فِي أُمَّةٍ، لَرَجَوْتُ أَنْ يَرْحَمَ اللهُ تَعَالَى بِيكَايَتِهِ تِلْكَ الْأُمَّةَ بِأَسْرِهَا.

وكان يقول: إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَقْرِضُ عَلَى الْعَبْدِ ثَمَنًا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي تَعَلَّمَهُ إِلَّا الثَّمَنَ الَّذِي يَأْخُذُهُ الْمُعَلِّمُ بِهِ، فَمَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ بِحَقِّ اللَّهِ، وَلَا بَتَغَايَ ما عِنْدَ اللَّهِ، فَقَدْ رِبَحَ، وَمَنْ تَعَلَّمَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ، انْقَطَعَ، وَلَمْ يَصِلْ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وكان يقول: مسكينُ ابنِ آدمَ! ما أضعُفُهُ! مكتومُ العِلَلِ، مَكْتُومُ الْأَجَلِ، تُؤَذِيهِ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، يرحلُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْآخِرَةِ مَرَحَلَةً، وَيَقْطَعُ مِنَ الدُّنْيَا مَنَازِلَةً، وَرُبَّمَا طَعَى وَتَكَبَّرَ، وَظَلَمَ وَتَجَبَّرَ.

وحضرَ الحسنُ جنازةً ثم قال: أَيُّهَا النَّاسُ! اعملوا لمثل هذا اليوم، ﴿فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُّوكَ إِلَى عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَبَيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! اغْتَنِمُوا الصُّحَّةَ وَالْفَرَاغَ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مِنْ قَبْلِ يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! لا تخافَنَّ مِنْ ذِي مُلْكٍ؛ فَإِنَّهُ عَبْدٌ لِسَيِّدِكَ، وَلَا تَطْمَعَنَّ فِي ذِي مَالٍ؛ فَإِنَّهُ تَأْكُلُ رِزْقَ مَوْلَاكَ، وَلَا تُخَالِلْ ذَا جُرْمٍ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْكَ وَبَالٌ، وَلَا تَحْقِرَنَّ فَقِيرًا؛ فَإِنَّهُ أَخٌ شَفِيقٌ لَكَ.

وكان يقول: ابن آدم! لا تخفِرَنَّ مِنَ الطَّاعَةِ شَيْئاً، وَإِنْ قَلَّ فِي نَفْسِكَ، وَصَغُرَ عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقْبَلُ مِثْقَالَ الدُّرَّةِ، وَيُجَازِي عَلَى اللُّحْفَةِ، وَلَوْ رَأَيْتَ قَدْرَهُ عِنْدَ رَبِّكَ لَسَرَّكَ، وَلَا تَخْفِرَنَّ مِنَ الْمَعْصِيَةِ شَيْئاً، وَإِنْ قَلَّ فِي نَفْسِكَ، وَصَغُرَ عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ رَبَّكَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

وحضر يوماً مجلساً جمع شيوخاً وشباباً، فقال: معشر الشيوخ! ما يُصْنَعُ بِالزَّرْعِ إِذَا طَابَ؟ فقالوا: يُحْصَدُ، ثُمَّ التَّفَّتْ فقال: معشر الشباب! كم من زرع لم يبلغ قد أدركته الآفة فأهلكته، وأنت عليه الجائحة فأهلكته! ثم بكى وتلا: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وكان يقول: ابن آدم! إِنَّكَ تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وَتُحَاسَبُ وَحْدَكَ.

ابن آدم! لو أن الناس كلهم أطاعوا الله، وعصيت أنت، لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله، وأطعته، لم تضرَّك معصيتهم.

ابن آدم! دينك دينك؛ فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلم لك دينك، سلم لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى، فاستعد بالله منها؛ فإنما هي نار لا تطفأ، وجسم لا يئلى، ونفس لا تموت.

وكان يقول: لا يزال العبد بخير ما كان له وإعط من نفسه، وكانت الفكرة من عمله، والذكر من شأنه، والمحاسبة من همته، ولا يزال يسر ما استعمل التسويف، واتبع الهوى، وأكثر الغفلة، ورجح في الأمانى.

(١) سورة إبراهيم: ٢٥.

وروي أن الحسن - رضي الله عنه - اتصل به أن مكحولاً (١) توفي، فحزن عليه، وترحم له، ثم اتصل به بطلان ذلك، فكتب إليه:

أما بعد: أبا عبد الله! خار الله لنا ولك في المخيا والممات، وقضى لنا ولك بخير الدنيا والآخرة، ويسر لنا ولك حسن المال والمقلب؛ فإنه أنا عنك خير راعنا، ثم أتى بعده ما أكذبه، فلعمرو الله لقد سررنا، وإن كان السرور بما سررنا به غير طائِل، وسبيل الانقطاع داعياً عما قليل إلى الخبر الأول، فهل أنت - عافاك الله ووفقنا وإياك لإصلاح العمل - كرجل ذاق الموت، وعائِن ما بعده، وسأله الرجعة فأجيب إليها، وأعطى ما سأل بعد أن عاين ما فاتته، فتأهب في فضل جهازه إلى دار قراره، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدَّم أمامه، ومن عمله إلا ما كتبت له ثوابه، والسلام.

وكان يقول: روي أن عيسى - عليه السلام - قال للحواريين: اعملوا لله، ولا تعملوا لبطونكم؛ فإنَّ الطير لا تزرع ولا تحصد، تغدو ولا رزق لها، الله يرزقها.

فإن قلتم: إنَّ بطونكم أكبر من بطونها، فهذه الوحوش من الدواب لا تزرع ولا تحصد، لا رزق لها، الله يرزقها.

وكان يقول: من استغفر الله - عز وجل - بعد صلاة الصبح ثلاث مرات؛ غُفِرَتْ له ذنوبه، وإن كان فاراً من الزحف (٢).

(١) مكحول الأزدي العكي البصري، أبو عبد الله، من فصحاء أهل البصرة.
(٢) لقد أشار الأستاذ الألباني إلى ضعف هذا الحديث الذي جاء بلفظ: «من استغفر الله دبر كل صلاة ثلاث مرات فقال: استغفر الله الذي لا إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غُفِرَتْ ذنوبه، وإن كان قد فر من يوم الزحف». انظر: «ضعيف الجامع» برقم (٥٤١٠).

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا رَحِيمٌ»، قالوا: كُلُّنَا رَحِيمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «الْيَسَّ رَحْمَةً أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَوَلَدَهُ وَخَاصَّتَهُ، وَلَكِنِ الْعَامَّةَ» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ؟ قالوا: بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ، وَرُجِيَ خَيْرُهُ، وَلَمْ يُخَفْ شَرُّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟ قالوا: بَلَى. قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ، وَلَمْ يُرَجَّ خَيْرُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ شَرُّهُ.

وكان يقول: إِنْ الرَّجُلَ لَيَسْمَعَ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ، فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونَ خَيْرَ آلِهِ مِنْ أَنْ لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَرَضَعَهَا فِي الْآخِرَةِ.

وَذَكَرَ أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا فِي وَقْتِ الْقَائِلَةِ لَا يَقِيلُونَ، فَقَالَ: مَا لَهُمْ لَا يَقِيلُونَ؟ إِنِّي لَأَحْسَبُ لَيْلَهُمْ لَيْلَ سُوءٍ.

وكان يقول: حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ؛ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ، وَاقْرَءُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ؛ فَإِنَّهَا طَامِحَةٌ، فَإِنَّكُمْ إِلَّا تَمْنَعُوهَا، تَنَزَّعَ بِكُمْ إِلَى شَرٍّ غَايَةٍ.

وقبل له: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا تَقُولُ فِي الشَّفَاعَةِ؟ أَحَقُّ هِيَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قِيلَ لَهُ: فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾^(١)، قَالَ: هُوَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قِيلَ لَهُ: فَبِمَ دَخَلَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، وَبِمَ خَرَجَ؟ فَقَالَ: كَانُوا أَصَابُوا ذُنُوبًا مِنَ الدُّنْيَا أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِهَا، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ بِمَا عَلِمَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! إِحْذَرُوا قَطِيعَةَ الْأَرْحَامِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ

يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١). وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ؛ فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَخَيْرٌ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ».

وقال رجلٌ للحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: جِهَادُ هَوَاكَ.

وكان يقول: مَنْ لَمْ يَمُتْ فُجَاءَةً، مَرَضَ فُجَاءَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاحْذَرُوا مُفَاجَأَةَ رَبِّكُمْ.

وكان يقول: نِعَمُ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُؤَدَّى شُكْرُهَا، إِلَّا مَا أَعَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَذَنْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهَا إِلَّا مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ.

وكان يقول: سَمِعْتُ بَكْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً كَانَ قَوِيًّا فَأَعْمَلَ قُوَّتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا فَكَفَّفَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

وكان يقول: الْكَذِبُ جِمَاعُ النِّفَاقِ.

وكان يقول: مَنْ كَذَبَ فَجَرَ، وَمَنْ فَجَرَ كَفَرَ، وَمَنْ كَفَرَ دَخَلَ النَّارَ.

ولقد رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَقُولُ: إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ كَذِبَةً، تَنَحَّى الْمَلِكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَحْوِ مَا يَجِيءُ مِنْهُ.

وكان يقول: مَا أَعَدَّ كَرِيمًا إِذَا جَرَزَتْ إِلَى أَخِي نَفْعًا، أَوْ رَدَدَتْ عَنْهُ ضَرًّا، وَأَصْلَحَتْ بَيْنَ اثْنَيْنِ.

وكان يقول: ابْنُ آدَمَ! تُبْغِضُ النَّاسَ عَلَى ظَنِّكَ، وَتَنْسَى الْيَقِينَ مِنْ نَفْسِكَ.

(١) سورة المائدة: ٢٧.

(١) سورة النساء: ١.

وكان يقول: إِنَّ الْأَعْلَالَ الَّتِي غُلِّ بِهَا أَهْلُ النَّارِ لَمْ تَحْصُلْ فِي أَعْنَاقِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَعْجَزُوا الْحَزَنَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ إِذَا طَلَعَا بِهِمُ اللَّهَبُ تُرْسِيهِمْ فِي النَّارِ. ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ الْعَمَلِ السَّيِّئِ الَّذِي يُوْدِّي إِلَيْهِ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ نَاسِكًا رَأَى نَاسِكًا فِي النَّوْمِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَجَدْتَ الْأَمْرَ؟ قَالَ: وَجَدْنَا مَا قَدَّمْنَا، وَخَسِرْنَا مَا خَلَفْنَا، فَقَالَ الْحَسَنُ: الْآنَ فَاقْدُمُوا عَلَى بَصِيرَةٍ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ قَوْمًا تَوَاصَفُوا الزُّهْدَ بِحَضْرَةِ الزُّهْرِيِّ^(١)، فَقَالَ: الزَّاهِدُ مَنْ لَمْ يَغْلِبِ الْحَوَامُ صَبْرَهُ، وَالْحَلَالُ شُكْرَهُ.

وكان أبو بكر بن عبد الله المزني^(٢) يقول: مَا ظَنُّكَ بِخَالِقِ الْكَرَامَةِ لِمَنْ يَرِيدُ كَرَامَتَهُ؟ وَمَا ظَنُّكَ بِخَالِقِ الْهَوَانِ لِمَنْ يُرِيدُ هَوَانَهُ، وَهُوَ عَلَيْهِمَا قَادِرٌ؟

وكان يقول: إِنَّاكُمْ وَالشَّوَيْفَ وَالتَّرَجِيَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

ولقد حَدَّثْتُ عَنْ أَبِي حَازِمٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: نَحْنُ لَا نَرِيدُ أَنْ نَمُوتَ حَتَّى نَتُوبَ، وَنَحْنُ لَا نَرِيدُ أَنْ نَتُوبَ حَتَّى نَمُوتَ، وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ مِنْهُ مُجْرِمًا غَيْرَ ثَائِبٍ، أَدْخَلَهُ النَّارَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ^(٣) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى جِدْعٍ يُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ، عُمِلَ لَهُ مِئْبَرٌ مِنْ طَرَفَيْ الْغَابِيَةِ، لَهُ دَرَجَتَانِ، فَلَمَّا قَامَ عَلَيْهِ، حَنَّ الْجِدْعُ إِلَيْهِ ﷺ. قَالَ أَنَسُ: سَمِعْتُ الْخَشْبَةَ تَحْنُ حَتَّى حَنِنَ الْوَالِهَةُ، وَمَا زَالَتْ تَحْنُ حَتَّى نَزَلَ ﷺ فَاحْتَضَنَهَا، فَسَكَتَتْ^(١).

فَكَانَ الْحَسَنُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ، يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: عِبَادَ اللَّهِ! الْجِدْعُ يَحْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ؛ لِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - - وَابْنُ اللَّهِ! لَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى لِقَائِهِ ﷺ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ رَأَى قَوْمًا يَسْتَمُونَ، فَقَالَ: وَأَنَا أَتَمَنَّى مَعَكُمْ، فَقَالُوا: مَا تَتَمَنَّى بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَيْتَنَّا لَمْ نُخْلَقْ، وَلَيْتَنَّا إِذْ خُلِقْنَا لَمْ نَمُتْ، وَلَيْتَنَّا إِذْ مِتْنَا لَمْ نُبْعَثْ، وَلَيْتَنَّا إِذْ بُعِثْنَا لَمْ نُحَاسَبْ، وَلَيْتَنَّا إِذْ حُوسِبْنَا لَمْ نُعَذَّبْ، وَلَيْتَنَّا إِذْ عُدِّبْنَا لَمْ نُحْلَلَدْ.

نَظَّمَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعَرِّيُّ بَعْضَ هَذَا الْكَلَامِ فَقَالَ:

فِيَا لَيْتَنَّا عِشْنَا حَيَاءً بِلا رَدَى مَدَى الدَّهْرِ أَوْ مِتْنَا مَمَاتًا بِلا نَشْرِ
وكان الحسن يقول: كَانَ قَبْلَكُمْ نَاسٌ أَشْرَقَ قُلُوبُهُمْ، وَأَنْشَقَ ثِيَابُهُمْ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَرْقَى مِنْهُمْ دِينًا، وَأَقْسَى قُلُوبًا.

وكان يقول: اهْتَمَامُ الْعَبْدِ بِذَنْبِهِ دَاعٍ إِلَى تَرْكِهِ، وَنَدَمُهُ عَلَيْهِ دَاعٍ لِيَتَوَنَّبَهُ،

(١) صحيح، رواه الترمذي في المناقب، باب: (٦) رقم (٣٦٢٧) مختصراً، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في بدء شأن المنبر يرقم (١٤١٤)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات. والدارمي (١/١٩)، وأحمد (١/٢٦٨) كلهم من طرق عن أنس بن مالك. وفي الباب، عن أبي، وجابر، وابن عمر، وسهل بن سعد، وابن عباس، وأم سلمة، وأبي سعيد، والحسين.

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، الإمام العالم الحافظ، المحدث، تولى الشام، من التابعين، مات سنة أربع وعشرين ومئة.
(٢) الصواب: بكر بن عبد الله بن عمرو المزني، تقدم.
(٣) خادم رسول الله ﷺ، الإمام المفتي، المقرئ، المحدث، أبو حمزة الأنصاري، الخوزجي، آخر الصحابة موتاً، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان، ونقل ابن الأثير: أن موته كان سنة ثلاث وثماتين.

ولا يزال العبد يهتم بالذنب حتى يكون له أنفع من بعض حسناته.

وكان يقول: مَنْ لَمْ يُدَاوِ نَفْسَهُ مِنْ سَقَمِ الْأَنَامِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، فَمَا أَبْعَدَهُ مِنَ الشِّقَاءِ، وَأَقْرَبَهُ مِنَ الشَّقَاءِ فِي دَارِ الْآخِرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ!

وكان يقول: الْحَقُّ مُرٌّ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ، وَمَنْ رَجَا الثَّوَابَ، خَافَ الْعِقَابَ.

وكان يقول: لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً يُعْرِضُونَ عَلَى أَخْدِهِمُ الْخِلَالَ فيقولون: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، نَخْشَى أَنْ يُفْسِدَنَا.

وكان يقول: لَوْ قُمْتَ اللَّيْلَ حَتَّى يَنْحَنِيَ ظَهْرُكَ، وَصُمْتَ النَّهَارَ حَتَّى يَسْقَمَ جِسْمُكَ، لَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا بَوْرَعٌ صَادِقٌ.

وكان يقول: مَا يَعْدِلُ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ شَيْءٌ مِنَ التَّطَوُّعِ، لَا حِجَّ، وَلَا جِهَادٌ.

وكان يقول: لَقَدْ رَوَيْ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ النَّارِ؛ فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَتَقَامِعُهَا حَدِيدٌ.

روى سَلَمَةُ بْنُ عَامِرٍ، قَالَ: صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ مَعَ الْحَسَنِ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا، اكْتَنَفْنَا حَوْلَهُ، فَبَكَى بُكَاءً شَدِيداً، فَقُلْنَا: مَا بِكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - وَقَدْ بُشِّرْتَ بِالْجَنَّةِ فِي مَنَامِكَ؟ فَازْدَادَ بُكَاءً، قَالَ: وَكَيْفَ لَا أَبْكِي، وَلَوْ دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ أَحَدُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَا عَرَفَ غَيْرَ قَبْلَانَا هَذِهِ! ثُمَّ قَالَ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! أَهْلَكَ النَّاسَ الْأَمَانِيُّ، قَوْلُ بِلَا عَمَلٍ، وَمَعْرِفَةُ بَغِيرِ صَبْرٍ، وَإِيمَانٌ بِلَا يَقِينٍ، مَا لِي أَرَى رَجَالاً وَلَا عُقُولاً، وَأَسْمَعَ حَسِيساً وَلَا أَرَى رَحَالاً وَلَا أُنَيْساً؟! دَخَلَ الْقَوْمُ - وَاللَّهِ - ثُمَّ خَرَجُوا، وَعَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا، وَحَرَّمُوا ثُمَّ اسْتَحَلُّوا. إِنَّمَا دِينُ أَحَدِكُمْ لَعَقَّةٌ عَلَى

لِسَانِهِ، إِذَا سُئِلَ: أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ يَوْمَ الْحِسَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ! كَذَبَ وَمَالِكٌ يَوْمَ الدِّينِ.

إِنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ قُوَّةٌ فِي دِينٍ، وَحَزْمٌ فِي لَيْلٍ، وَإِيمَانٌ فِي يَقِينٍ، وَعِلْمٌ فِي حِلْمٍ، وَحِلْمٌ فِي عِلْمٍ، وَكَيْسٌ فِي رَفَقٍ، وَتَجَمُّلٌ فِي فَاقَةٍ، وَقَصْدٌ فِي غِنَى، وَشَفَقَةٌ فِي تَفَقُّةٍ، وَرَحْمَةٌ لِلْمَجْهُودِ، وَعَطَاءٌ لِلْحَقُوقِ، وَإِنْصَافٌ فِي اسْتِقَامَةٍ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُّ فِي مُسَاعَدَةٍ مَنْ يُحِبُّ، وَلَا يَهْمُزُ، وَلَا يَغْمُزُ، وَلَا يَلْمِزُ، وَلَا يُلْغُو، وَلَا يُلْهَوُ، وَلَا يَلْعَبُ، وَلَا يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَلَا يَتَّبِعُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَلَا يَجْحَدُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ، وَلَا يَتَجَاوَزُ فِي الْقَدْرِ، وَلَا يَسْتَمُتُ بِالْفَيْحَةِ إِنْ حَلَّتْ بِغَيْرِهِ، وَلَا يُسَرُّ بِالْمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ بِسِوَاهُ.

المؤمن: فِي الصَّلَاةِ خَاشِعٌ، وَإِلَى الزَّكَاةِ مُسَارِعٌ، قَوْلُهُ شِفَاءٌ، وَصَبْرُهُ تَقَى، وَسُكُوتُهُ فِكْرَةٌ، وَنَظَرُهُ عِبْرَةٌ، يُخَالِطُ الْعُلَمَاءَ لِيَعْلَمَ، وَيَسْكُتُ بَيْنَهُمْ لِيَسْلَمَ، وَيَتَكَلَّمُ لِيَعْنَمَ، إِنْ أَحْسَنَ اسْتَبْشَرَ، وَإِنْ أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ، وَإِنْ عُتِبَ يَسْتَعْتِبُ، وَإِنْ سَفِهَ عَلَيْهِ حَلِمَ، وَإِنْ ظَلِمَ صَبَرَ، وَإِنْ جِيرَ عَلَيْهِ عَدَلَ، لَا يَتَعَوَّدُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقَوْرٌ فِي الْمَلَأِ، شُكُورٌ فِي الْخَلَاءِ، قَانِعٌ بِالرِّزْقِ، حَامِدٌ عَلَى الرِّخَاءِ، صَابِرٌ عَلَى الْبَلَاءِ، لَا يَجْمَعُ بِهِ الْقُنُوطُ، وَلَا يَغْلِبُهُ الشُّعْخُ، إِنْ جَلَسَ مَعَ الْأَغْطِيَانِ كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ جَلَسَ مَعَ الذَّاكِرِينَ، كُتِبَ مِنَ الْمُسْتَهْتَرِينَ.

المؤمن: طَلَّقَ الْبَشَرَ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَرِيمٌ بِذَوْنٍ، رَاحِمٌ وَصُولٌ، يُقْطَعُ قَيْصَلٌ، وَيُؤْذَى فَيَحْتَمِلُ، وَيُهَانُ فَيُكْرِمُ، صَبُورٌ عَلَى الْأَذَى، مُخْتَمِلٌ لِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ، هَانَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْنِ فِيهَا بَيْتاً، وَلَا جَدَّدَ ثَوْباً، حَسَنُ الثَّقَةِ، لَا يَظُنُّ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوَاءِ.

المؤمن: هَيِّنْ، لَيِّنْ، تَقَيِّ، زَكَيِّ، رَضِي، لا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ، شَاحِبٌ لَوْنُهُ، شَاعَتْ رَأْسُهُ، قَلِيلٌ طَمَعُهُ، كَثِيرٌ فِي دِينِهِ، غَيَّبِي فِي دُنْيَاهُ^(١).

المؤمن: كَثِيرُ الْوَقَارِ، مُكْرَمٌ لِلجَّارِ، مُطِيعٌ لِلجَبَّارِ، هَارِبٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، نَفْسُهُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ شَاهِدَةٌ، وَجَوَارِحُهُ لِلَّهِ ذَاكِرَةٌ، وَيَدُهُ بِالْمَعْرُوفِ مَبْسُوطَةٌ، وَهُوَ فِي مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ.

المؤمن: صَادِقٌ إِذَا وَعَدَ، قَرِيبٌ الرِّضَا، بَعِيدُ الْغَضَبِ، يَعْلَمُ إِذَا عُلِمَ، وَيَفْهَمُ إِذَا فُهِمَ، مَنْ صَاحِبُهُ سَلِيمٌ، وَمَنْ خَالِطُهُ غَنَمٌ، كَامِلُ الْعَقْلِ، كَثِيرُ الْعَمَلِ، قَلِيلُ الْأَمَلِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَثُومُ الْغَيْظِ. ثُمَّ بَكَى فَأَبْكَانَا.

وقال: هَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَوَّلَ فَلَاوَلَّ، حَتَّى لِحَقُّوا بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَهَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ سَلَفِكُمُ الصَّالِحِ، وَإِنَّمَا غَيَّرَ بِكُمْ لَمَّا غَيَّرْتُمْ، ثُمَّ تَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٢).

ثم قَالَ الْحَسَنُ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ، وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِمَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَى عِبَادِكَ الْمُخْلِصِينَ، وَأَوْلِيَانِكَ الْمُتَّقِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعَلَى كُلِّ خَيْرٍ مُعِينٌ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

(١) لَعَلُّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا، وَإِلَّا فَإِنَّهُ مِمَّا يَتَرْتَبِ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمِ بِأُمُورِ دُنْيَاهُ، غَيْرَ غَيَّبِي بِهَا، حَتَّى يَتَعَاطَلَ مَعَهَا عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَيَعْرِفَ صَحِيحَهَا مِنْ سَقِيمِهَا.

(٢) سورة الرعد: ١١.

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، بِمَوْنِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْمُعِينِ الْوَهَّابِ، تَتَمِّيقًا وَخَطًّا وَتَضَمُّيمًا وَضَبْطًا، عَلَى يَدِ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ، الرَّاجِي رَحْمَةَ رَبِّهِ الْغَنِيِّ الْقَدِيرِ كِمَالِ الدِّينِ، حُسَيْنِ بْنِ شَمْسِ الدِّينِ، مُحَمَّدِ الْكَاتِبِ، ابْنِ غِيَاثِ الدِّينِ عَلِيِّ الْكُرْمَانِيِّ. أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ شَأْيِبِ رِضْوَانِهِ سَجَالًا، وَفَسَحَ لَهُمْ فِي حَضْرَاتِ النِّعَمِ مَا اتَّسَعَ مَجَالًا، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ الْوَاضِحِ الْبَيَانِ، ثَانِي عَشَرَ شَهْرِ اللَّهِ الْمُعَظَّمِ رَمَضَانَ، عَيْنِ شَهْرِ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَتِسْعِ مِائَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ، أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى نِجَاتَهَا، وَقَدَّرَ فِي عَافِيَةِ تِمَامِهَا، وَهُوَ سَبْحَانَةُ الْمَانِحِ الْمُنِيلِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَقٌّ حَمْدِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْخَيْرُ يَكُونُ، وَالْخَطْبُ يَهْوُنُ.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٥
* عملي في الكتاب	٨
* ترجمة المصنف	١٠
آداب الحسن البصري	
* مقدمة المصنف	٢١
* الفصل الأول:	
في ذكر منشئه، وصفة أحواله وأفعاله	٢٣
* الفصل الثاني:	
فيما أورده من الآداب ومكارم الأخلاق	٣٦
* الفصل الثالث:	
فيما أورد من الحكم والمواعظ مختصراً على جهة البلاغة والإيجاز	٥٣
* الفصل الرابع:	
في ذم الدنيا ونهيه عن التعلق بها	٦٥
* ومن هذا الفصل:	
ما روي عنه - رضي الله عنه - في قصر الأمل	٧٨

❖ الفصل الخامس :

فيما أورده على جهة الاستغفار والدعاء والنهي عن التصنع والرياء . . ٨٣

❖ ومن هذا الفصل :

ما رُوي عنه - رحمه الله - في نهيه عن التصنع وذم الرياء ٨٨

❖ الفصل السادس :

فيما رُوي عنه عند تلاوة القرآن من الحكم والمواعظ ٩٤

❖ الفصل السابع :

في مكاتبة الخلقاء ومعاملاته مع الأمراء وولاة الأمور ١٠٤

❖ ومن هذا الفصل :

ما رُوي عن الخروج على الأمراء ١١٦

❖ الفصل الثامن :

فيما رُوي عنه من المواعظ والحكم في سائر الأمور ١١٩

الفهرس ١٣٩

❖ ❖ ❖

الْبَكَافِي

مِنْ شُرُوحِ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ

إِعْتِكَاد

ماهر الهندي

بِإِذْنِ الصَّالِحِينَ
بِإِذْنِ الشَّيْخِ وَالْمَشْرِعَةِ النَّوَوِيَّةِ

